القسم الأول

تبدلات سيكولوجية كبرى

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

من الثبات إلى الحركة

الاستقرار ، أى اجتناب كل تغيير من شأنه أن يخل بالتوازن الفذ القائم : تلك أمنية العصر الكلاسيكى . فحب الاستطلاع الذى يعتمل فى النفوس القلقة خطر . أجل ، خطر وجنونى معاً ؛ لأن الرجل الذى يرتحل إلى أقاصى الدنيا لا يجد حيثما ارتحل إلا ما يحمله هو معه : أى حالته البشرية . ولو أنه وجد شيئاً آخر فان ذلك لن يخفف من قلقه . فليركز تفكيره فى المسائل الأبدية التى لا يمكن تحليلها أو تعليلها والفكر مشتت حائر . قال سينكا : « أول دليل على اتزان العقل قدرته على التوقف وانطوائه على نفسه » ، وكشف باسكال أن بؤس الناس مرده إلى سبب واحد ، هو أنهم لا يستطيعون الاستقرار فى غرفة .

فالفكر الكلاسيكى ، فى عظمته ، يحب الثبات : بل هو يريد أن يكون الثبات بعينه . فبعد الحدثين التاريخيين العظيمين : حركة النهضة وحركة الاصلاح الدينى la Réforme ، جاء زمن كان زمن التروى والتفكير . فأقصيت كل من الأمور السياسية والدينية والاجتماعية والفنية عن دائرة المناقشات التى لا تنتهى ، والنقد الذى لا يكتفى ؛ لقد وجدت سفينة البشر الضالة سيناء تستقر فيه : فلترس فيه أطول أسد ، أو تركن إليه إلى الأبد ! إن النظام يسود الحياة : فما دام الناس قد اهتدوا إلى نهج اعترف الجميع بكماله ، فما جدوى بحث جديد ، يجعل كل شئ محل مناقشة من جديد ؟ هكذا بدأ الناس يخشون الامتداد بما فيه من مفاجآت ، ولو استطاعوا لعملوا على إيقاف الزمن ! حتى الماء فى فرساى يبدو للزائر كأنه لا يجرى ؛ فهم يخزنونه ثم يطلقونه ، ويدفعون به نحو السماء ، كأنما يريدون استبقاءه إلى الأبد .

فى القسم الثانى من كتاب دون كيشوت (١) ، الفصل الثامن ، يقدم لنا سرفانتس Cervantes « النبيل ذا المعطف الأخضر » ، الذى يقابله فى الطريق « الفارس ذو الوجه الحزين » . le Chevalier de la Triste Figure ونرى هذا النبيل يسرع إلى منزله حيث يجد السعادة والحكمة معاً . فهو فى بسطة من العيش دون ترف ، يقضى حياته مع زوجته وأولاده وأصدقائه ، مسلاته الأثيرة عنده الصيد والقنص ، لكنه يفضل بجعة مستأنسة أو سمانة أليفة على العربات المطهمة ، وكلاب الصيد والصقور . ولديه بضع عشرات من الكتب وهو بذلك راض قرير . وهو تارة مدعو عند جيرانه لتناول الطعام ، وتارة يدعوهم عنده : مائدته معتدلة لا تبذير فيها ولا تقتير . يحب الحرية المتزنة ويميل إلى العدل والوفاق . يجود على الفقير مراعياً ألا يستسلم للزهو أو الاعلان . يسعى إلى الصلح بين المتنابذين ، ويقدس العذراء ، ويثق كل الثقة برحمة الله الواسعة . هكذا يصف ذلك النبيل نفسه . ونرى على إثر ذلك سانشو — خادم دون كيشوت — يترجل من فوق حماره ، ويمسك بقدم النبيل ، يود أن يتناولها بالتقبيل ، فيقول له : « ماذا تفعل أيها الأخ ؟ » فيرد سانشو Sancho : « اسمح لى أن أقبل قدميك ، لأنك أول قديس أراه على صهوة جواد ! »

وما كان دون ديجو دى ميراندا Don Diego de Miranda — الرجل ذو المعطف الأخضر — قديساً ، بل هو يمثل فى سنة ١٦١٠ المثل الأعلى للحكمة الكلاسيكية . فهو لا يزدرى « الفارس المغامر » بل إنه يحمل فى نفسه قسطا من روح البطولة والفروسية ، ولكنه لا يرضى أن يتبعه فى هذا الطريق . إنه يعلم تمام العلم أن الحياة لا تستطيع أن تجود على المرء بشئ يسعده أكثر من الانسجام بين

---

(١) قصة مشهورة من روائع الأدب العالمى كتبها سرفانتس المؤلف الاسبانى ، ونشر القسم الأول منها فى عام ١٦٠٥ ، والقسم الثانى فى ١٦١٥ . ودون كيشوت هو بطل هذه الرواية ولقبه الآخر هو الفارس ذو الوجه الحزين le Chevalier de la Triste Figure يسخر فيها سرفنتس من الفرسان المغامرين إذ يقول دون كيشوت : « لقد تركت وطنى ، ورهنت أملاكى ، وتخليت عن راحتى وبيتى ، وألقيت بنفسى بين يدى الحظ لكى يدفع بى أينما يشاء . . . أردت أن أبعث الفروسية المغامرة البائدة . . . وأصبحت متعتى المفضلة حماية الأرامل والفتيات واليتامى . . . » من كتاب « دون كيشوت » ، القسم الثانى الفصل السادس عشر ، طبعة جارنييه ، باريس . وانظر أيضا بول هازار ، « دون كيشوت » باريس ١٩٣١ . [المترجمان]

الفكر والحواس والقلب . أما وقد اهتدى إلى سر الحياة الطيبة فانه سيحتفظ به ويطبقه حتى يومه الأخير .

بيد أن كل شئ إلى فناء ، ولن يساوى سره هذا شيئاً لدى أولئك الذين سيخلفونه فى الدنيا . وعندما يكبر أحفاده ويصبحون رجالا سوف يجدون ذوقه قديماً بالياً ، ويحتقرون الوسيلة التى اهتدى بها إلى القناعة فى الحياة . وسوف يفسخون تلك الهدنة السعيدة ، التى كانت تسمح بالنشاط والعمل فى هدوء واطمئنان . ويطلقون عنان الحرية لرغباتهم المكبوتة من أمد طويل ، فيرتحلون إلى الآفاق البعيدة ، بحثاً عن الشكوك . وإذا نحن وجدنا فيما بعد ، روح الظعن والارتحال يقوى وينتشر ، وإذا رأينا الرواد يفارقون القرى والولايات والأوطان إلى مختلف الأصقاع بحثاً عن طرائق الناس فى الحياة والتفكير ، فاننا ندرك من هذه العلامة الأولى أن تغيراً يعترى المبادئ التى كانت تنظم الحياة . « إن كنت طلعة ، فارتحل . . . (١) »

***

عندما كان بوالو Boileau يذهب إلى مياه البربون Bourbon كان يخيل إليه أنه فى آخر الدنيا إذ كان قانعاً بالاقامة فى أوتوى Auteuil . وكان راسين Racine مكتفياً بباريس ؛ وانزعج الاثنان أيما انزعاج عندما اضطرا أن يتبعا الملك فى رحلاته . ولم يذهب بوسويه Bossuet إلى روما مطلقاً ، ولا فينلون أيضاً . ولم يشأ موليير أن يعود مرة أخرى إلى دكان الحلاق فى بزيناس Pézenas . فكل العظماء الكلاسيكيين كانوا يؤثرون الثبات . أما المغامرون فسوف نرى أنهم فولتير ومونتسكيو وروسو . ولكن الانتقال من أولئك إلى هؤلاء لم يتم إلا بعد عمل غامض .

والواقع أنه فى نهاية القرن السابع عشر وفى مستهل القرن الثامن عشر ، عاودت الايطاليين روح السفر . وكان الفرنسيون دائبى الحركة كالزئبق :

---

(١) تروتى دى لاشيتاردى « تعليمات لنبيل صغير أو فكرة الرجل الكيس » ، باريس ١٦٨٣ ص ٦٨ .

Trotti de la Chétardie, *Instructions pour un jeune Seigneur, ou l'idée du galant homme*, Paris, 1683 .

وكانوا على حد قول أحد المعاصرين ، مولعين بالجديد حتى أنهم قلما احتفظوا بأصدقائهم إلى أمد طويل ؛ إنهم يبتكرون كل يوم الجديد الطريف ، ويستحدثون البدع . فإذا هم سئموا الاقامة فى بلادهم ، سافروا إلى آسيا أو إلى أفريقيا لتغيير المكان والتسلية(١) .

أما الألمان فقد اعتادوا حب الظعن من قديم . ولا يمكنك أن تحملهم على الاستقرار حيث يكونون . كتب المؤلف الفرنسى سانت إفريموند Saint-Evremond فى روايته المختلطة Cosmopolite الهزلية المسلية *Sir Politick would be* على لسان ألمانى : يقول « نحن رحالون جميعاً من الأب إلى الابن ، ولا شئ يستطيع أن يمنعنا عن الترحال . لا نكاد نتعلم اللاتينية حتى نتأهب للسفر . وأول شئ نقتنيه دليل يشرح لنا الطريق ، ثم كتيب صغير يعرفنا بالتحف والغرائب فى كل بلد . وإذا كان المسافر أديباً أخذ معه دفتراً أبيض فاخر التجليد ، يدعونه دفتر الأصدقاء *Album Amicorum* ، ولا ينسى أن يزور العلماء فى كل مكان يمر به ، وأن يعرض عليهم هذا الدفتر ليسجلوا فيه أسماءهم . . . » وإنك لترى الألمانى فى سفره لا يوفر مجهوده ، فهو لا بد أن يصعد فى الجبل حتى قمته ، ويتبع النهر من منبعه إلى مصبه ، يعد المعابر والجسور ، ويدرس أطلال المسارح والمعابد ، ويشاهد — مسجلا فى مذكراته — الكنائس والأديرة والميادين والمجالس البلدية والقناطر القديمة والقلاع ودور الأسلحة ، ويذكر ما سجل على القبور ، ولا ينسى الأبراج والقباب وساعات الميادين ، ويترك كل ذلك ويسرع إلى مكان آخر ، إذا سمع بحفلة تتويج ملك فرنسا أو انتخاب الامبراطور !

والانجليز مولعون بالأسفار ، وهم يعدونها استكمالا للتربية . كان النبلاء الشبان حديثى التخرج من اكسفورد وكمبريدج يملأون جيوبهم بالمال ويستصحبون رائداً حكيما ثم يجتازون المانش ويشرعون فيما يسمونه « الدورة الكبرى » . وقد عرفنا منهم أنواعاً مختلفة : فمنهم من كان يكتفى بمعرفة أجود أنواع النبيذ كالفرنتنيان Frontignan والمونتفياسكون Montefiascone وداى d'Ay وداربوا d'Arbois وبوردو Bordeaux واكسيريس Xérez ؛ ومنهم من

---

(١) جيوفانى باولو مارانا : رسالة بن أحد سكان صقلية إلى صديق ، تتضمن نقدا ظريفا لباريس وللفرنسيين ١٧٠٠ - ١٧١٠ .

كان يبحث فى كل مكاتب التاريخ الطبيعى ، ويدرس مجموعات قديم الآثار . ولكل امرئ خلق . يقول جريجوريو ليتى(١) Grégorio Leti : «يرتحل الفرنسيون عادة بغية الاقتصاد حتى إن وجودهم فى مكان ، كثيراً ما يسبب من الخسارة أكثر مما يجلب من المنفعة . أما الانجليز فعلى العكس من ذلك ، يخرجون من بلادهم مزودين بكثير من صكوك الصرف ، ومصطحبين حاشية كبيرة فينفقون مبالغ طائلة . وفى مدينة روما وحدها يوجد عادة ما ينيف على الخمسين نبيلا انجليزيا ، ومن يتبعهم من خدم ، ينفق كل منهم مالا يقل عن ألفى جنيه ذهباً فى العام . حتى إن مدينة روما وحدها تسحب كل عام من انجلترا ما ينيف على ثلاثين ألف بستول(٢) . » وكذلك باريس « لا تخلو من السياح الانجليز . أخبرنى أحد أصحاب المصارف الانجليز أنه صرف للنبلاء الانجليز فى فرنسا ، مائة وثلاثين ألف جنيه فى غضون عام ، ولم يكن هذا الرجل من أغنى رجال المال . » وقد كان جريجوريو ليتى نفسه مغامراً ومهاجراً ، وكان له خمسة أوطان . فلقد ولد فى ميلان ، وانضم إلى مذهب كالفين فى جنيف ، وكان مادحاً للويس الرابع عشر فى باريس ، ثم مسجلا للتاريخ الانجليزى فى لندن ، وكاتباً هجائياً فى هولندا حيث توفى عام ١٧٠١ . كان العلماء يزيدون من معارفهم بالانتقال من بلد إلى بلد كما فعل ألطونيو كونتى ، وبادوان الذى أقام فى باريس عام ١٧١٣ ، وفى لندن عام ١٧١٥ حيث اشترك فى معركة حساب النهايات الصغرى (٣) ، ثم رحل إلى هانوفر للاجتماع بليبنتز ، وفى أثناء مروره بهولندا

---

(١) « تاريخ ومذكرات عن حياة كرومويل » ، أمستردام ١٦٩٢ ، الترجمة الفرنسية ١٦٩٤ ، طبعة ثانية فى ١٧٠٣ ص ٤٦ .

Grégorio Leti, *Historia e Memorie sopra la vita di O. Cromvele*, Amsterdam, 1692, trad. fr. 1694, p. 46.

(٢) بستول pistole : عملة قديمة تعادل ثلاثين فرنكا .

(٣) حساب النهايات الصغرى Calcul infinitésimal : هو فن قياس وتعداد مالا نتصور وجوده ، إخضاع اللانهائى للحساب الجبرى . « لا تظن أننا نسخر منك حين نقول إنه توجد خطوط لا متناهية فى الكبر تشكل زوايا لا متناهية فى الصغر ، وأن خطا مستقيما طالما هو متناه ، إذا اعوج قليلا جدا أصبح منحنيا لا نهائيا . و إذا كان كل هذا يبدو فى أول الأمر مغالاة فى مخالفة المنطق ، فهو فى الواقع نتيجة رفعة الذهن البشرى وسعته ومنهج كشف الحقائق التى كانت مجهولة حتى الآن . » — الرسائل الفلسفية لفولتير ، الرسالة السابعة عشرة عن اللانهائى . [المترجمان]

لم يهمل زيارة ليوفنهوك Leuwenhoeck . وكان الفلاسفة يرحلون كما فعل لوك وليبنتز ، لا للتأمل الهادئ بجوار مدفأة بل لمشاهدة تحف العالم . كما رحل الملوك أيضاً ، فقد توفيت الملكة كريستينا ملكة السويد فى روما عام ١٦٨٩ وسافر بطرس قيصر الروسيا إلى أوربا عام ١٦٩٦ .

انتصرت السياحة لأنها نوع من الأدب غير مقيد بحدود ، نوع يسير يستطيع المرء فيه أن يلج كل باب وأن يطرق كل موضوع ، من أبحاث علمية إلى نشرات للمعارض والتحف إلى قصص غرامية . وهى حيناً تروى قصة جافة حشدت بالعلم ، وحيناً تكون بحثاً فى علم النفس ، وحيناً آخر تصير مجرد رواية ، وهى قد تشمل كل ذلك فى نفس الوقت . وهى قد تقابل بالإطراء ، أو بالانتقاد ولكن هذا وذاك يؤكدان الأهمية التى اتخذتها السياحة على كل حال ويبينان لزومها للانسان . إن نفس الميل الذى جعلها تزدهر ، شجع أيضاً صناعة دلائل السفر . ليس علينا إلا الاختيار : « النبيل الأجنبى السائح فى فرنسا » : *Le gentil-homme étranger voyageur en France* « تعليمات عامة لمن يريد السفر » : « دليل لطرق جميع ولايات اسبانيا وفرنسا و إيطاليا وألمانيا » *Il Burattino veridico ovvero Istruzione generale per chi viaggia; Guia de los caminos para ir por todas las provincias de Espana, Francia, Italia, y Alemania*. إن المدن الشهيرة لها الحق فى أن تحظى بمعاملة خاصة ، « مدينة وجمهورية البندقية » *La ville et la république de Venise* « وصف مدينة روما لصالح الأجانب » *Description de la ville de Rome en faveur des étrangers* « دليل للأجانب الذين يدفعهم حب الإستطلاع إلى رؤية واستماع أشهر الأشياء فى مدينة نابولى الملكية » *Guida de' Forestieri curiosi di vedere et intendere le cose più notabili della regal città di Napoli.* « وصف جديد لأغرب ما يوجد فى مدينة باريس » *Description nouvelle de ce qu'il y a de plus remarquable dans la ville de Paris.* وهناك عنوان جذاب ، لا يمكن أن يقرأه المرء دون أن تتملكه الرغبة فى السفر ، ودون أن تلوح له آفاق ملأى بأعذب الوعود : الملاذ « ملاذ إيطاليا » *Les Délices de l'Italie* « ملاذ الدانمرك والنرويج » *Les Délices et Agréments du Danemark et de la Norvège* « ملاذ بريطانيا العظمى وارلاندا » *Les Délices de la Grande-Bretagne et*

l'État et les Délices de la Suisse « ملاذ سويسرا » *de l'Irlande* . وكل هذه الملاذ مجتمعة تهيئ « عجائب أوربا » *Les Merveilles de l'Europe* .

***

ولكن أليس « رواق الدنيا الظريف » *la Galerie agréable du monde* أكثر إغراء من كل ذلك ؟

وواقع الأمر أن نشاط أوربا فى كشف العالم واستغلاله لم ينقطع لحظة ، ولقد واصل القرن السابع عشر فى هذا الصدد المهمة التى ألقاها على عاتقه القرن السابق . ففى عام ١٦٣٦ أعلن توماسو كامبانيلا Thommaso Campanella ما يلى : لما كان كشف العالم قد ناقض بعض المعارف التى كانت تستند عليها الفلسفة القديمة فلا بد من أن ينجم عنه نظرة جديدة نحو الأشياء(١) . هذه الفكرة التى نشأت رويداً رويداً فى مبدأ الأمر ، ازداد سريانها سرعة لأن الهولنديين لم يقتصروا على تنظيم تجارتهم مع بلاد الهند الشرقية ، بل وصفوا ما شهدوه فيها من غرائب ، ولأن الانجليز لم يرفعوا علمهم على كل البحار فحسب بل نشروا عن رحلاتهم أفخم المؤلفات مما لم يسبق له مثيل . ولأن كولبير Colbert عرض على الفرنسيين أن يوجهوا نشاطهم نحو المستعمرات الغنية النائية : وما أكثر القصص التى سترد من هناك « مؤلفة بأمر الملك » ! وما كان الملك يدرى أنه ستتمخض هذه الروايات يوماً بأفكار تزلزل أعز مبادئ عقيدته وألزمها لاستتباب سلطانه !

وهكذا نرى إنتاجاً ينشأ ويتسع حتى يجاوز كل حد معقول ؛ فمن أحاديث إلى وصف وبيان ومجموعات . واستطاع الناس الذين يلتزمون دورهم ، ولا يعرفون شيئاً عن البحيرات الكبيرة فى أمريكا ولا عن حدائق مالابار فى الهند ، ولا عن المعابد العجيبة فى الصين — استطاعوا أن يطلعوا فى غرفهم ، وبجانب مدافئهم ، على ما يقصه الآخرون . وجعل الملحقون بالارساليات الأجنبية الكابوسان Capucins والفرنسيسكان والجيزويت Jésuites يحكون عن التبشير .

---

(١) عن تأثير الارتحال على الأفكار ، أنظر إلى كتاب هنرى بوسون « التفكير الدينى الفرنسى من شارون إلى باسكال » ١٩٣٣ ص ٢٨٤ .

Henri Busson, *La pensée religieuse française de Charron à Pascal*, 1933, p. 284.

ووصف الأسرى من أهل طرابلس والجزائر ومراكش ما عانوا من اضطهاد فى سبيل الدين . ونشر أطباء الشركات ما دونوا من مذكرات ؛ وحكى رواد البحار مثل دامبيير Dampier ، جميللى كاريرى Carreri ، وود روجرز Wood Rogers سياحتهم حول العالم ، فخورين . وكان هروب اللاجئين البروتستانت الذين أبحروا فى ١٠ يوليو من عام ١٦٩٠ من أمستردام مغادرين أرض أوربا الجاحدة ، للبحث فى طريق بلاد الهند الشرقية عن فردوس يبدأون فيه حياة جديدة ، علامة من علامات الزمن . ولكنهم لم يجدوا هذا الفردوس .

وتأثرت الضمائر تبعاً لهذا الانتاج الضخم ، ونجدها فى أواخر القرن تعمل بهمة ونشاط . ابتعد سير وليم تمبل Sir William Temple عن ضجيج الأمور السياسية وركز اهتمامه فى استثمار حدائقه الجميلة فى مور بارك Moor Park وفى تثقيف ذهنه . إننا نستطيع أن نتبعه فى تفكيره : كم من بلاد ومناطق كنا نجهلها بالأمس أو نعتبرها فى حالة من الوحشية ، قد عرفناها اليوم بفضل روايات التجار والبحارة والسياح ! فى تلك البلاد التى دخلت فى أفقنا حديثاً وأصبحت الآن موضع محادثات ومناقشات علمية ، ظهرت مكتشفات لها أهميتها ووقعت أحداث تستحق التنويه ولا تقل فى قيمتها عن تلك التى كانت تغذى أذهاننا من قديم . لا ينبغى أن نلقى كل اهتمامنا إلى حدود تلك البلاد وأقاليمها وغلاتها فحسب ، بل يجب أن نهتم بقوانينها وتقاليدها وإدراتها وأشكال حكوماتها . . . وعلى إثر ذلك شرع وليم تمبل فى درس السياسة والأخلاق فى الصين ويبرو والتتار وبلاد العرب ، وبالتأمل فى خريطة العالم الجديد ، عاد يبحث عن المبادئ التى كانت تسود العالم القديم (١) .

وكثيراً ما كان المسافر يعود إلى وطنه بفكرة يعتقد أنها مبتكرة ، بينما هو فى الواقع كان يحملها معه عند رحيله : ولكنه لا يخطئ كثيراً فى اعتبارها فكرة فعالة . لأنه عند رجوعه بها إلى أمستردام أو لندن أو باريس تكون هذه الفكرة أو النظرية قد ازدادت فخراً وجسارة واكتسبت نفوذ التجربة الذى كان ينقصها من قبل . نستطيع أن نؤيد واثقين أن كل الأفكار الحيوية ، كالملكية والحرية والعدالة ، صارت محل مناقشة من جديد ، بفضل الأمثلة

---

(١) *Essay upon Heroick Virtue.* Dans les *Miscellanea* de 1690.

المستمدة من البلاد البعيدة . أولا ، لأنه بدلا من تبسيط الفوارق بغية الوصول إلى نموذج شامل ، تحقق وجود ما هو خاص ، فردى ، لا يقبل أى تحويل . ثانياً ، لأنه أمكن مواجهة الآراء المكتسبة بالوقائع المستمدة من التجربة ، التى أصبحت فى متناول المفكرين . وأضيفت براهين جديدة ، حية لامعة ، إلى البراهين التى كانت تعوز الناس لمعارضة هذا المذهب أو ذاك ، وهذه العقيدة المسيحية أو تلك ، والتى لم يكن بد من التماسها بمشقة فى محفوظات الأجيال الغابرة : فها هى ذى الآن قد أحضرها المرتحلون وأصبحت فى متناول الناس . كثيرا ما يستشهد بيير بايل Pierre Bayle بتلك الشهادات التى تضمن صحتها المراجع الجديدة . « يؤكد لنا مسيو برنييه M. Bernier فى مقاله الغريب عن المملكة المغولية الكبرى . . . » — « يتضح لنا من رحلات مسيو تافرنييه Tavernier . . . » — « يتضح لنا مما نشر من مقالات عن الصين . . . » — « أنظروا إلى ما كتبت الشركة الهولندية عن اليابان . . . » ويقول فى شأن الجلبة التى يقوم بها الناس فى أثناء خسوف القمر : « لا يزال الفرس يقومون بهذه العادة السخيفة كما يتضح من بيان بيترو دلافالى . وهى مستعملة أيضاً فى مملكة تونكين حيث يسود الاعتقاد بأن القمر يقاتل تنيناً : أنظر المقال الحديث الذى كتبه مسيو فرنييه » — « إن الملاحظة التى أبديتها عن تفشى الفسق والفحشاء بين المسيحيين تذكرنى بأنى سبق أن قرأت فى رواية المسيو ريكو . . . إن مقالات مسيو ريكو قد أحدثت ضجة كبرى حتى لا يمكنك أن تجهلها . . . » وحين يريد بايل تبيان أن وجود الله لا يؤيده الارتضاء الشامل — وهو بيت القصيد — فهاك البرهان الذى يستمده من السفر : « بماذا تجيبون إذا اعترضت عليكم بوجود شعوب الكفار التى يتحدث عنها سترابون ، والشعوب التى كشفها الرواد المحدثون فى أفريقيا وأمريكا ؟ (١) »

لعل أحدث الدروس التى تلقتها أوربا عن « الامتداد » درس النسبية . لقد تغيرت وجهات النظر ، فالمبادئ التى كانت تتراءى سامية فيما سبق ، لم تعد قيمتها تتوقف إلا على اختلاف المكان ، والعادات التى كانت تبدو مستندة

---

(١) « أفكار عن المذنب » ، ١٦٨٣ ، الفصل ١٤ ، ٧٣ ، ٨٩ ، ١٢٩ ، ١٦٥ وما بعدها ، *Pensées sur la Comète*, 1633 .

إلى العقل اتضح أنها فى الواقع تقوم على التقليد . وعلى العكس من ذلك فإن عادات كانت تبدو خرافية أصبحت منطقية ، إذا تناولها الناس بالتفسير على أساس المصدر والبيئة . فنحن نرسل شعرنا ونحلق لحانا ، أما الأتراك فيحلقون شعرهم ويرسلون لحاهم . واليد اليمنى عندنا أشرف من اليد اليسرى بينما يرى الأتراك عكس ذلك : هذا الاختلاف بين الشعوب لا تجوز المناقشة فيه ، فلنقبله على علاته . إن أهل سيام يديرون ظهورهم للنساء فلانين أنهم يحتقرونهن بعدم نظرهم إليهن ، أما نحن فنفعل عكس ذلك . ولكن من المصيب ؟ ومن المخطئ ؟ إذا نظر أهل الصين إلى أخلاقنا على ضوء أفكارهم الخاصة التى تكونت منذ ٤٠٠٠ سنة فانهم يكادون يعتبروننا برابرة جهالا ، وإذا نظرنا نحن إلى الأخلاق الصينية نجدها شاذة . هذا ما يقوله الأب لى كونت عضو إرسالية اليسوعيين ، وبعد ذلك يصل إلى هذا الاستنتاج الفلسفى : « إننا نخطئ جميعاً ، لأن الآراء التى ورثناها منذ طفولتنا ، تمنعنا من النظر إلى أفعال الانسان بعين الحقيقة ، فنتوهم أن هذه الأفعال ليس لها فى ذاتها قيمة ، بل إن الشعوب هى التى حددت معانيها فى بداية تأسيسها . » ومثل هذه الأقوال تؤدى إلى نتائج بعيدة ، تؤدى إلى فكرة النسبية العالمية مباشرة . يقول برنييه : « لا شئ يستعصى على الاعتقاد ، والرأى المبتسر ، والعادة ، والرجاء ، ومسألة الكرامة ، الخ » ويقول شاردان : « إن إقليم كل شعب هو فيما أرى ، السبب الأساسى لميول الانسان وعاداته على الدوام . . . » وهو يضيف إلى قوله : « إن الشك بداية العلم ، فالذى لا يشك فى شئ لا يفحص شيئاً ، ومن لا يفحص شيئاً لا يدرك شيئاً ، ومن لا يدرك شيئاً فهو أعمى ، وسيظل أعمى . » وعندما نطالع هذه الكلمات الزاخرة بالمعانى ، نفهم الملاحظة التى كتبها لابرويير فى فصله المعروف « العقول القوية » *Des Esprits forts* (١) : « بعض الناس يفسدون بسبب أسفارهم الطويلة .

---

(١) Esprits forts تعبير يدل على من يفاخرون بعدم التصديق . ويتكلم لابرويير La Bruyère عن العقول القوية فى كتابه « الشخصيات » *Les caractères* الفصل الخامس عشر « هل تعرف العقول القوية ، إننا ندعوها هكذا من قبيل السخرية ؟ أى ضعف أبلغ من ألا يكون المرء واثقا بمبدأ كيانه ، وحياته وشعوره ، ومعارفه ، وما سينتهى إليه ؟ أى تثبيط للهمة أكبر من أن يشك الانسان فيما إذا كانت روحه ليست مادة كالحجر أو الهامة ، وأنها لا تقبل الفساد كهذه المخلوقات الدنيئة . . . » [المترجمان]

ويفقدون القليل الذى تبقى لهم من دينهم : إذ يشاهدون كل يوم مذهباً جديداً ، وأنواعاً شتى من المراسيم والأخلاق » .

***

وأخيراً أقبل أولئك الأجانب الرمزيون ، أقبلوا ومعهم عاداتهم وقوانينهم وقيمهم المبتكرة ، وفرضوا أنفسهم على ضمير أوربا التى كانت تتحرق إلى سؤالهم عن تواريخهم وأديانهم ، وقد أجابوا على ما وجه إليهم من أسئلة ، كل بدوره .

وكان موقف الأمريكى محيراً ، فقد وجد مفقوداً فى أرض حديثة الاكتشاف ، إذن فهو ليس ابناً لسام أوحام أو يافث . ترى ابن من يكون ؟ كان الوثنيون قبل تجسد المسيح على الأقل مشتركين فى الخطيئة الأصلية لأنهم ينحدرون جميعاً من أب واحد وهو آدم : ولكن ما القول فى الأمريكان ؟ ثم بأى سر استطاعوا الهروب من الطوفان ؟ ويا ليت الأمر يقف عند هذا الحد . فكل امرئ يعلم أن الأمريكان برابرة همج : كان المرء إذا أراد أن يتصور حالة الانسان قبل المدنية ، يضرب بهم المثل . قوم يعيشون عرايا لا يسترهم كساء . بيد أن شكاً جعل يساور العقول : هل الرجل الهمجى لا بد أن يكون مخلوقاً وضيعاً حقيراً ؟ ألا يوجد رجال من الهمج يعيشون سعداء ؟

مثلما كان الجغرافيون القدماء يرسمون على خريطة الدنيا صور النباتات والحيوانات والناس ، فلنسجل هنا فى خريطة الدنيا الذهنية مكانة ذلك الرجل « الهمجى الطيب » le Bon Sauvage وأهميته . صحيح أن هذا الشخص ليس جديداً ، إلا أن شخصيته لم تكتمل نهائياً إلا فى الوقت الذى ندرسه ، بين القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر . وقبل ذلك كان الاعداد قد أنجز ، فقد استدحت إرساليات المذاهب المختلفة فضائل ذلك الرجل ، التى رفعت من شأنه ، دون اهتمام بما إذا كانت تلك الفضائل التى يطرونها مسيحية أو غير مسيحية ! ولما كانت الحماسة قد أنستهم الحرص فقد استدحوا بساطته قائلين إنه يكتسبها من الطبيعة ، واستدحوا كرمه وحسن طويته ، تلكما الميزتين اللتين لا توجدان دائماً فى أوربا . ولما نضجت هذه الأفكار ظهر رجل لم يكن عليه إلا أن يقدمها فى أسلوب حى قوى ، وفى حذق أيضاً : فالحذق ألزم الشروط . وكان ذلك الرجل، البارون دى لاهونتان baron de Lahontan متمرد الذهن ،

سئم الجيش ، فأبحر إلى شواطئ كويبك عام ١٦٨٣ . وارتأى أن يشق طريقه فى الحياة فى كندا ، فانه لم يكن أحمق أو جباناً . ثم اشترك فى مقاتلة الهنود الحمر بصفته ضابطاً . ولما كان عديم الطاعة ، حاد المزاج ، فقد لاحقه الكرب حتى هرب ، وعاد إلى أوربا ليعيش فيها حياة غير موفقة . ولما نشر فى عام ١٧٠٣ « رحلاته ، ومذكراته ، ومحاوراته » ، خلف تحفة لاشك فى أنها أبقى وأخلد مما دار فى خلده ، ولو أنه لم يكن يستخف بقدره .

إن أداريو الرجل المتوحش يحادث لاهونتان الرجل المتمدن ، الذى يقوم بالدور السئ . يعرض أداريو مظفراً الدين الطبيعى مقابل الانجيل . ويعرض الأخلاق الطبيعية مقابل القوانين الأوربية ، التى لا هم لها إلا الايحاء برهبة العقاب . ويعرض اشتراكية بدائية يجد فيها المرء العدالة والسعادة ، مقابل المجتمع الجديد . وهو يصيح فليحى الهنود الحمر ! ويرثى لذلك المتمدن المسكين الذى لا فضيلة له ولا قوة ، والذى لا يستطيع أن يجد القوت والمأوى ، ذلك الساقط الفاسد الأخلاق ، مسخرة الكرنفال بثيابه الزرق وجواربه الحمر وقبعته السوداء وريشته البيضاء وشرائطه الخضر ، ذلك الذى يموت ألماً فى كل لحظة بما يلاقى من عذاب وهوان فى البحث عن رتبة أو مال ، لا تترك فى قلبه سوى اليأس والاشمئزاز آخرة المآل .

أما الرجل المتوحش فقوى يجيد السير والصيد ويقاوم التعب والحرمان . ألا ما أجمله وما أنبله ! إن الجهل نعمة له : فهو لا يعرف القراءة والكتابة ولذا يجتنب كثيراً من السوء : فالعلوم والفنون هى منبع الفساد . أما هو فيطيع الطبيعة أمه الرءوم ، ولذا فهو سعيد . إن المتمدنين هم البرابرة الحقيقيون ، فليكن ذلك الرجل مثلا يحتذونه وليلقنهم كيف يهتدون إلى الحرية والكرامة الانسانية .

وبجانب ذلك المتوحش الطيب يطالب المصرى الحكيم بمكانه : بيد أن شخصيته لم تكتمل بعد ، فهى فى دور التكوين . وستشكل بتنسيق فسيفسائى قوامه مواد متباينة : أحجار هيرودوت وسترابون التى تستعمل دائماً ولكنها لا تقدم أبداً ، وتقريظ علماء التاريخ الذين سيسعون إلى سلب العبريين مجدهم المقدس ونسبته إلى المصريين ، ثم روايات السياح . وقد ذكر أولئك الأخيرون أن الموسيقا والهندسة قد نشأتا فى أرض مصر القديمة ، وأن المجموعات النجمية سجلت لأول مرة فى سماء مصر . ولنتذكر هنا الصفحات الرائعة التى سطرها

بوسويه فى مؤلفه «مقال عن التاريخ العالمى» *Discours sur l'Histoire Universelle* كان الصقليبيون والأسهريون أقواماً من البرابرة ، فكان على مصر أن تقدم للعالم مدنية كاملة . وكان هذا الشعب المصرى رصيناً رزيناً ، تدفعه قوة ذهنه وثباته إلى التمسك بالقديم والنفور من الجديد ، فاذا أشاد التاريخ بحفظه للجميل ، فانما يدل ذلك أيضاً على أنه كان شعباً اجتماعياً أنيساً لطيف المعشر . ولم يقتصر المصريون على سن القوانين بل حرصوا على تنفيذها ، وتلك فضيلة نادرة . وكانوا يحاكمون الموتى ، وعلى ضوء تلك المحاكمة السامية كانوا يميزون بين الأخيار والأشرار ، فيحتفظون للأولين بشرف المقابر الكبيرة ، أما الأخيرون فيلقون بهم بين الأقذار . . . ولقد كانوا يتركون مياه النيل تغرق أراضيهم لتزداد خصباً . . . إنهم بناة الأهرام .

وإذا كان بوسويه يبدى هذا الاعجاب بمصر ، فلأنه كان يغذى تفكيره بذكريات الأزمان الغابرة ، ولأنه قرأ تقارير إرساليات الكابوسان التى زارت مصر العليا . وقد دفعته الحماسة إلى أن يأمل يوماً أن تبعث طيبة الجميلة ذات المائة باب . أفلم يكن مثل ذلك المشروع يليق بمقام الملك العظيم(١) ؟ «لو أن سياحنا وصلوا حتى المكان الذى بنيت فيه هذه المدينة ، لوجدوا بلا شك بين أنقاضها آثاراً ليس لها نظير : لأن ما شيده المصريون إنما أقيم ليصمد للزمن . . . والآن ، وقد انتشر اسم الملك العظيم فى أماكن الدنيا التى كانت مجهولة من قبل ، الآن ، وهذا الملك يشجع البحث عن الصنائع الجميلة طبيعية كانت أو فنية فى أقصى الأرجاء ، أفلا يليق بازاء هذه الرغبة النبيلة فى المعرفة أن نكتشف الآثار الجميلة المدفونة فى صحراء طيبة ، فتغنى العبارة الفرنسية بفضل المخترعات المصرية ؟ »

أما ما لم يكن يقبله بوسويه فهو البحث فى مصر عن فلسفة قديمة جداً ، وجديدة فى الوقت نفسه(٢) . غير أنه ظهر رجل مغامر ذو ذهن مخترع غريب يدعى جيوفانى باولو مارانا Giovanni Paolo Marana غادر جنوة غاضباً لأسباب تافهة والتحق بخدمة لويس الرابع عشر ، غير منزه عن الغرض ، ونشر فى عام

---

(١) يقصد لويس الرابع عشر .

(٢) نعتقد أن المؤلف يقصد البحث عن فلسفة « جديدة » أى غير الفلسفة اليونانية القديمة . [المترجمان]

١٦٩٦ قصة عجيبة « محادثات بين فيلسوف ومعتزل ، عن موضوعات أخلاقية وعلمية عديدة » . وهو يقدم فى هذه القصة شيخاً فى التسعين من عمره ، يبدو فى عنفوان الشباب ، غض الاهاب ، متورد الوجنات كالغادة الحسناء . ترى كيف يتيسر حفظ الشباب على هذا النحو؟ إنه عاش فى مصر أمداً طويلا : وفى أرض مصر يتلقنون سر الأكسير الذى يطيل العمر . ويتعلمون على الأخص الفلسفة الحقيقية التى لا تربطها أدنى علاقة بالمسيحية . وهو يقدم أيضاً شاباً مصرياً كله فضيلة ومعرفة ، يستطيع أن يدلى على الفور ببيانات تستحق الاعجاب عن أدق الموضوعات . تلك فضيلة هذه الأرض الوثنية ، التى هى بالرغم من ذلك أرض مباركة .

فلندع السنين تمر : وستكتمل الشخصيات ، وتتضح وتغتنى ؛ وسينتظم المنظر بالطنبور والبردى واللوتس وأبى قردان ؛ وأخيراً سنجد المصرى الحكيم ، le Séthos الذى قدمه الأب تيراسون والذى سيصبح فتنة القرن الثامن عشر . لم يكن ستيوس هذا بطلا بل فيلسوفاً ، لم يكن ملكاً بل محافظاً ، ولم يكن مسيحياً بل أحد الموقفين على أسرار Eleusis : نموذج رائع لكل حاكم ولكل إنسان .

ولقد بدا كما لو أن العربى المسلم لن ينال من الحظ مثلما نال المصرى : لأن محمداً كان موضع حملات شائنة وتخرصات مؤداها أنه أغرق الأرض بالدم والنار . ولكن هنا جاء العلماء يضمون جهودهم إلى جهود السياح ، إذ عنى بدراسة الحضارة الشرقية بعض كبارهم مثل هربيلو d'Herbelot وتلميذه جالاند Galland الأستاذ بالكلية الملكية ، وبوكوك Pococke أستاذ التاريخ العربى بجامعة أكسفورد ، وريلاند M. Reland أستاذ اللغات الشرقية والآثار الاكليريكية القديمة بأوترخت Utrecht ، وأوكلى M. Ockley أستاذ اللغة العربية بجامعة كامبردج . اطلع هؤلاء الأساتذة على النصوص الأصلية فنظروا إلى العربى نظرة جديدة .

لفت أولئك العلماء الأنظار إلى أن جمهوراً غفيراً لم يكن ليتبع محمداً لو كان محمد رجلا دعياً مصروعاً ، وأنه من المحال أن دينا غير مهذب — كما يدعى البعض — يستطيع أن يعيش وأن يتقدم . لكن لو سأل الناس العرب عن تاريخهم بدلا من أن يستمعوا إلى الروايات الكاذبة ، لعرفوا أن محمداً وأتباعه لا يقلون عن أبطال الشعوب الأخرى فى مزايا القلب والفكر . وبعد ، فما أسوأ

ما قاله الأميون عن الدين المسيحي ! وما أكثر السخافات التي ألصقت به ! هكذا شأن الناس على الدوام إذا ألقوا نظرة سطحية على الأشياء . لقد ناقضوا أقوالا لم يلفظها المسلمون ، وأخطاء لم يرتكبها الاسلام . والحقيقة أن الاسلام دين منطقي معقول ، دين نبيل جميل . وأكثر من ذلك فان الحضارة الاسلامية جديرة بالاعجاب : فبعدما طغت الجاهلية على العالم ، من الذي كان حفيظاً على حقوق التفكير والثقافة ؟ العرب . . .

تم هذا التطور من الجفوة إلى الحظوة في سنوات قلائل نهايتها سنة ١٧٠٨ . ففي هذا التاريخ أعلن سيمون أوكلي Simon Ockley حقيقة —أو وهما— ستغدو فيما بعد ، بعد مائتي سنة ، جديرة بالمناقشة : فهو ينكر أن الغرب يفوق الشرق . لأن الشرق أنجب من العباقرة عدداً لا يقل عما أنجبه الغرب ، ولأن الحياة هناك أسعد : « من حيث خشية الله ، والتحكم في الشهوات ، والحكمة في السلوك ، والاحتشام ، والتواضع في كل الأمور وفي كل الظروف ، بالنسبة إلى كل هذه المسائل (وهي الأهم على كل حال) : إذا كان الغرب قد أضاف شيئا مهما كان قليلا ، إلى الحكمة الشرقية ، فينبغي أن أعترف أنني مخطئ كل الخطأ » . تسير هذه الأفكار حتى تصل إلى فرنسي هو الكونت دي بولانفلييه Comte de Boulainvilliers الذي بعد أن شكر هربيلو ، وبوكوك ، وريلاند ، وأوكلي ، كتب « حياة محمد » حيث يكتمل التحول : لكل شعب حكمة تخصه فمحمد يمثل حكمة العرب ، كما مثل المسيح حكمة اليهود .

ترى أي بلد — تركيا أم فارس — سيقدم لنا ذلك الرجل الذي يسخر من عاداتنا ومن عيوبنا ومن رذائلنا ؟ ذلك الغريب الذي يسير في طرقنا منتقداً أمورنا ؟ ذلك الشخص الذي يسلينا ويكدرنا في نفس الوقت ، والذي أنيط به أن يذكر شعباً معتداً بنفسه ، بأنه ليس يملك بعد ، لا الحقيقة ولا الكمال ؟ الشخص الذي لا غنى عنه في الأدب الأوربي بلا شك مادام قد جعل منه أحد نماذجه المفضلة ، واستخدمه مائة مرة قبل أن يسأمه ؟

لقد قدمته تركيا ، لأن أحد أوجهها كان متجهاً نحو أوربا وكان الناس أعرف بها . ولقد وصفها انجليزي هو سيربول ريكو ، سكرتير أحد السفراء ، في أسلوب بلغ من حيويته أن كتابه أصبح منذ عام ١٦٦٦ أحد كتب السياحة

الكلاسيكية ، وأعيد طبعه مرات عديدة ، حتى أصبح يدور فى كل يد ؛ ونشرت بعده روايات أخرى كثيرة . فقام مارانا الذى ذكرنا اسمه من قبل ، والذى كان معجباً بالمصريين ، يصف تركيا : بدأ فى عام ١٦٨٤ بنشر « جاسوس السلطان الأعظم » الذى لقى رواجاً فذاً ، وأعجب أسرة كبيرة العدد من الأبناء والأحفاد. الجاسوس محمود الذى اتخذ لقب تيت المولدافى Tite de Moldavie رجل دسيم ، كتوم : ولما كان رصيناً متحرزاً ومتواضعاً فانه لم يجتذب اهتمام أحد حتى إنه عاش ٤٥ عاماً فى باريس دون أن يستلفت الأنظار . كان يتنزه فى النهار ، ويعود فى الليل إلى غرفته ، ليكتب إلى رئيس الديوان فى الآستانة ، أو إلى رئيس الخزانة ، أو إلى أغا قائد الانكشارية ، أو إلى محمد ، أغا السلطانة الوالدة ، أو إلى الوزير المهاب قاسم . وكانت رسائله حافلة بالنقد الجارح الجرئ سواء ضد الأمور السياسية أو الأمور الحربية ، أو الأمور الكنسية . كان يسخر من كل شئ .

ولكن الفارسى أخذ بثأره ، وتم له النصر . ولا شك فى أن ذلك يرجع إلى سببين : أولها ، أنه لا توجد حكايات عن الأسفار أمتع مما كتب شاردان بالرغم مما فيها من بطء وإطناب . ذلك الجوهرى الذى رحل إلى بلاد الفرس لبيع الحلى ، من ساعات وأساور وعقود وخواتم ؛ ذلك البروتستانتى الذى حرم عليه فسخ أسرنانت(١) دخول فرنسا ، كان يحس فى وطنه إحساس الرجل الغريب . كان يعرف أصفهان أكثر مما يعرف باريس ، ويحبها على الأخص حباً جماً . حتى إن من يقرأ كتابه ولو كان أمياً ، يدرك أن هناك ، بعيداً فى بلاد آسيا ، أناسا لا يقلون عنه شأناً بحال من الأحوال ، ولو أنهم يحيون حياة تفترق كثيراً عن حياته . إذن يجب على الأوربيين أن يدعوا فكرة التفوق الشخصى التى ألفوها ، وأن يبدلوها بفكرة الاختلاف : يا له من تغير سيكولوجى ! ففى بلاد الفرس كل شئ يختلف : الغذاء الذى يتناوله المرء فى الطريق ، والدواء الذى

---

(١) Révocation de l'Edit de Nantes : أمر نانت ، أمر أصدره هنرى الرابع فى ١٥٩٨ لصالح البروتستانت ، يسمح فيه بمباشرة مذهب كالفين ، وكان للبروتستانت أربع جامعات ومقاعد فى البرلمان وغير ذلك من الحقوق . ولكن لويس الرابع عشر حد من هذه الحقوق شيئا فشيئا حتى فسخ هذا الأمر فى عام ١٦٨٥ . وأعمل فى البروتستانت الاضطهاد . الأمر الذى سبب فرار عدد كبير من البروتستانت كان بينهم خيرة الفرنسيين وأنشطهم . [المترجمان]

يصنعه الطبيب المحلى على طريقته ، والخان الذى يختلفون إليه للمبيت ؛ كل شئ يختلف ، الثياب ، والحفلات ، والمآتم ؛ الدين والعدل والقانون . ومع ذلك فان أولئك الفرس ليسوا قوماً من البرابرة : إنهم على النقيض فى غاية الرقة والتهذيب بل فى أوج المدنية ، حتى إنهم لطول عهدهم بها قد سئموها . وهنا ينوه شاردان بوجود هذا « العالم الآخر » وشرعيته . لقد عرف قراءه « بكل ما هو جدير بأن يتجه إليه فضول أوربا ، مما يتعلق ببلد نستطيع أن نسميه « دنيا أخرى » ، سواء لبعد الشقة أو لفوارق الأخلاق والمبادئ . . . (١) »

أما السبب الثانى ، الذى أتاح للفرس احتلال مكان الأتراك فهو واضح كل الوضوح ، حتى ليكفينا أن نشير إليه : فبعد المسودات والرسوم التخطيطية ، ظهر رجل — ليستغل فيما بعد ، مادة معدة — رجل لم يكن موهوباً فحسب ، بل كان فوق ذلك عبقرياً فذاً يدعى مونتسكيو Montesquieu (٢) .

لم يكن ينقص غير القليل لالتحاق السيامى بهذه الفرقة ذات الألوان المختلفة . أراد لويس الرابع عشر توطيد العلاقات التجارية مع بلاد سيام ، ليبشر هناك بالدين المسيحى . وبدأت العلاقات : ففى عام ١٦٨٤ رأى أهل باريس — لشدة عجبهم — حضور مندوبى سيام ، وفى عام ١٦٨٥ ذهبت بعثة فرنسية إلى سيام ، وفى عام ١٦٨٦ حضرت بعثة سياسية جديدة إلى فرنسا ؛ وفى عام ١٦٨٧ جددت المحاولة بعثة فرنسية أخرى . وعندئذ ظهرت بيانات كتبها العلماء الأكليريكيون وبعض رجال السلك السياسى المشاركين فى الموضوع . ومن هنا تولد حب استطلاع الجمهور . ومن هنا أصبح الناس — بمقتضى آلية سيكولوجية لا تتغير — يتخيلون صورة السيامى فى إطار جميل : رجل تقى عاقل مستنير . فمثلا ، يحكى أنه لما عرض على ملك سيام أن يتقبل الدين الجديد ، أجاب بأنه ، لو شاءت العناية الالهية أن يسود العالم دين واحد ، فما كان أيسر من تنفيذ ذلك الغرض . ولكن حيث إن الله يسمح بوجود أديان مختلفة ، فينبغى أن

---

(١) مقدمة «صحيفة سياحة الفارس شاردان Chardin فى بلاد الفرس» ، ١٦٨٦ .

(٢) مونتسكيو من أعلام الأدب فى فرنسا . ألف « روح القوانين » ، و « عن عظمة وانحلال الامبراطورية الرومانية » ، و « الرسائل الفارسية » *Les Lettres persanes* وهى المقصودة هنا . [المترجمان]

نستنتج أنه يؤثر أن يسبح بحمده عدد لا يحصى من المخلوقات ، كل يمجده طبقاً لأصوله الخاصة . فدهش الناس عندما سمعوا هذه الكلمات : واعجبا ! إن أمير سيام ، هذا الذى لا يعرف شيئاً من علوم أوربا ، قد شرح بالرغم من ذلك ، وفى قوة ووضوح يستحقان الاعجاب ، أقوى برهان تتذرع به فلسفة الجاهلية ضد الدين ! . . . إن النتيجة التى نستخلصها من كل ذلك تؤدى بنا إلى الأثورودكسية(١) . إن السياسيين يتقبلون فى أرضهم كل أنواع الأديان ، وملكهم يسمح للبعثات المسيحية أن تمارس التبشير فى بلاده بكل حرية : فهل الأوربيون فى مثل تسامحه هذا ؟ — ترى ماذا كانوا يقولون لو فكر «الطالابوان» فهكذا يدعى كهنة سيام — فى القدوم إلى فرنسا ليبشروا بدينهم ؟ إن السياميين يؤمنون بدين خرافى ، إذ يعبدون إلهاً غريباً يدعى «سومونوخودوم» وبالرغم من ذلك فان فى أخلاقهم الطهر والزهد ؛ ولا يستطيع أى مسيحى أن ينتقد سلوكهم . أفلا توجد إذن بين الدين والأخلاق صلة حتمية ؟

إلا أن ثورة نشبت فى القصر السيامى ، جاءت على غير ما تشتهى البعثة الفرنسية ، فلم يغير ملك سيام دينه ، وأهمل المشروع . وعلى إثر ذلك جاء الفيلسوف الصينى يحجب الطالبوان السيامى .

***

ذلك أنه ليس لبلد ، فى جغرافية الأفكار هذه ، ما للصين من أهمية .

لما كان اليزويت العلماء تحدوهم أوسع المطامع ، ويأملون فى تحويل تلك الكتلة الآسيوية الهائلة إلى المسيحية ، بالتهوين من الفوارق بين الدينين ، وغض النظر عن تعارضهما ؛ ولما كانوا قد عرفوا كيف يكتسبون فى بكين عطف الامبراطور ، فقد حاولوا تبيان اقتراب الفلسفة الصينية من المذهب الكاثوليكى ، حتى إنه يمكن جعلهما متماثلين تماماً ، إذا توافرت الرغبة فى ذلك . وعندهم ، أن كونفوشيوس الذى كون روح شعبه وهذبه ، قد نادى بمذهب يشعر فيه المرء فى كل لحظة ، بنفث إلهى . كان يعتبر أن الطبيعة البشرية قد جاءت من السماء فى غاية الطهارة والكمال ، وأن الفساد تطرق إليها فيما بعد ، وأن واجبنا

---

(١) الأثورودكسية : انظر إلى الفصل الرابع من القسم الأول .

لآن أن نرد إليها جمالها الأول : إذن يجب على أشياعه الصينيين أن يطيعوا الله ، وأن يتمشوا مع أوامره السامية ، وأن يحبوا إخوانهم محبتهم لأنفسهم . كان يخيل إلى المرء إذا اطلع على تعاليم كونفوشيوس ، أنه أمام قديس للدين المسيحى ، لا أمام رجل تربى فى فساد حالة الطبيعة : إنه شبيه صينى للقديس بولس . لا ريب فى أن الصين قد استقت الحقيقة من منابعها الأصلية ، وأن أولاد نوح الذين انتشروا فى آسيا الشرقية قد أتوا إليها بتلك البذور التى استثمرها كونفوشيوس .

ولد كونفوشيوس قبل المسيح بثمانية وسبعين وأربعمائة سنة ، وكثيراً ما كان يقول ، كأنه نبى : فى الغرب يوجد القديس الحقيقى . وبعد ٦٠ عاماً من ولادة المسيح استحث الأمبراطور سيمتى حلم ، وفسر كلمة « الأستاذ » هذه ، ثم أرسل مبعوثين إلى الغرب وأمرهم أن يواصلوا رحلتهم حتى يقابلوا ذلك القديس . وفى ذلك الوقت كان القديس توما يبشر بالدين المسيحى فى الهند ، ولو أن أولئك المبعوثين أدوا رسالتهم ، بدلا من التوقف فى أول جزيرة ، خشية خطر البحر ، فربما أصبحت الصين فرعاً من الكنيسة الرومانية . . .

وبالمثل ، لو أن الجيزويت أفلحوا فى مسعاهم لتحقيق التماثل بين الدينين ، فلعل أوربا لم تكن لتشعر بصفة عدم التحول ، التى يتصف بها الشرق الأقصى ، الذى كان يجبرها على الالتفات إليه . وفى عام ١٦٩٧ بذل الجيزويت جهدهم الأخير : إذ نشروا مؤلفهم الكبير *Confucius, Sinarum Philosophus* ؛ مؤلف يهم المذهب أكثر مما يهم العلم ، ويخص تفسير الوقائع أكثر مما يخص الوقائع ، لأنه إنما كتب قبل كل شئ ، من أجل شباب الارساليات : صائدى الناس ، الذين يصبحون أقدر على اصطياد الأرواح فى شباكهم ، بازدياد معرفتهم بأوجه الشبه الممكنة : جنود المسيح ، مزودين بالأسلحة المخصصة لمعاركهم الجديدة .

بيد أن الجيزويت أخفقوا ، واتضح فى عام ١٧٠٠ استحالة التوفيق بين المستحدثات التى نتجت من دراسة الشرق ، والتقاليد القديمة . فان معركة « المراسيم الصينية » أوضحت وبينت حالتين فكريتين ، وأوجبت الاختيار بينهما . وكانت معركة قديمة قدم الارساليات الأولى إلى الصين ، لأن المذاهب الأخرى المنافسة ، لم تكف أبداً عن انتقاص تسامح الجيزويت وميلهم إلى المصالحة . فلما رأت هذه المذاهب نجاح الآباء الجيزويت ، وتقريبهم بين المسيحيين والصينيين ، احتجوا احتجاجاً شديداً حتى إن الموضوع لم يرفع إلى السلطات

الدينية فحسب ، بل اشترك فيه الجميع . ونحن نعلم أى شدة تثور بها المناقشات اللاهوتية إذا انتقلت إلى مثل ذلك الوسط . قالوا : لا تخطئوا ، فان الجيزويت يخدعونكم ، فأهل الصين وثنيون . إنهم يعبدون أجدادهم ويعبدون كنفوشيوس . والجيزويت المقيمون فى الصين يبيحون للمتنصرين أن يسجدوا أمام تمثال شنهوام ، وأن يحتفلوا بجنائزهم فى مراسيم ملؤها الخرافات ، وهم يقدسون لزعيمهم كون — فو — زو القرابين ، ويخفى الجيزويت عنهم سر الصليب ؛ ولا يقومون بأداء « المسحة الأخيرة » للمرضى والأسوات ، ولا العمادة أيضاً . ثم رفع أعضاء الارساليات الأجنبية ما كتبه الأب لوكونت والأب لوجوبيان إلى مجامع روما والسربون ، متهمين إياهما بالمروق .

وكان القتال عنيفاً . فقد قررت روما إرسال مندوب إلى الصين لكى يقوم بتحقيق جديد ؛ أما السوربون فقد أدانت الجيزويت دون انتظار أوبة ذلك المبعوث . هنا اتضحت استحالة تحويل المجهول إلى معروف ، أى تحويل الدين الصينى إلى الكاثوليكية ، والصين إلى المسيحية . لم يكن بد من تقبل وجود كائن لا يتحول ، ولا يمكن إنكار غرابته أو عظمته .

ولكن المتحررين من كل نوع كانوا معجبين بالصين كل الاعجاب :

Vossius apportait un traité de la Chine

Où cette nation paraît plus que divine. (١)

ذكر فوسيوس أن الصينيين لا يعترفون بالنبل إلا لرجال الأدب ؛ ولا يحتفظون بذكرى إلا ذكرى أسرائهم العادلين المسالمين ، وأن مستشارى الامبراطور وأخصائه يؤاخذون أميرهم بمثل الحرية التى كان الأنبياء يؤاخذون بها ملوك اليهود : وإلا تعرضوا للوم الشعب وسخطه . يقال إن لاموت لوفاييه لم يكن يستطيع أن يمنع نفسه من الصياح : أيها القديس كونفوشيوس ، ادع لنا! *Sancte Confuci. ora pro nobis* وذلك قبل أن يطالع مؤلفات الفيلسوف الصينى . ولما ازدادت معرفة المتحررين به ، وشهدوا معركة المراسيم ، اتضح لهم أمران بينان : أولها أن المدنية الصينية كانت تستحق الاعجاب ، وثانيهما أن هذه المدنية كانت وثنية تماماً : فبالنسبة « للعقول القوية » يا لها من ثروة للاستغلال !

---

(١) جاءنا فوسيوس ببحث عن الصين يبدو فيه هذا الشعب شعباً إلهيا .

استغلال فى السياسة :

« إن الصينيين قد حرموا من الوحى . إنهم ينسبون إلى قوة المادة كل صفة ننسبها إلى القوة الروحانية ، التى ينكرونها وينكرون احتمال وجودها . إنهم عميان ولعلهم عنيدون .

ولكنهم عاشوا على ذلك منذ ٤٠٠٠ عام أو ٥٠٠٠ ، وهذا الجهل أو هذا العناد لم يحرم حالتهم من شئ من الفوائد الكبيرة التى يرجوها الرجل العاقل ، وينبغى أن ينالها ، من المجتمع : الرفاهية ، والكثرة ، وممارسة الفنون الضرورية ، والدراسة ، والهدوء ، والأمان (١) . »

واستغلال فى الدين :

« إنه لعجيب أن يوجد بين مختلف الأديان ، دين واحد ، يقوم على أساس الواجب الطبيعى ، ودون استناد على الوحى ، ينكر المذاهب العجيبة وأشباح الخرافات والتهاويل ، التى يظنون أنها مفيدة جداً لسلوك الناس (٢) . »

إن أهل الصين كفرة ، ولكن كفرهم هذا ليس كفراً سلبياً مثل كفر همج أمريكا ، بل هو كفر إيجابى اختيارى : ومع ذلك فهم قوم ذوو حكمة وفضيلة وتقوى ، وعقيدتهم تشبه مذهب سبينوزا :

« بقدر ما أستطيع أن أحكم على شعور الأدباء الصينيين ، بما يزودنا به السياح ولا سيما الأب جوبيان من أخبار ، فى كتابه : « تاريخ أسر امبراطور الصين فى صالح الدين المسيحى » ، يخيل إلى أنهم جميعاً متفقون مع سبينوزا على أنه ليس فى الكون جوهر غير المادة ، تلك المادة التى يميزها باسم الاله وستراتون باسم الطبيعة (٣) . »

---

(١) بولانفلييه ، « حياة محمد » ١٧٣٠ ، ص ١٨٠ - ١٨١ . Boulainvilliers, *La Vie de Mahomed*, 1730.

(٢) بولانفلييه « تفنيد أخطاء سبينوزا » ١٧٣١ ص ٣٠٣ .

(٣) كولنز Collins « رسالة عن أبدية الروح » ١٧٠٩ ، الترجمة الفرنسية ، لندن ١٧٦٩ ص ٢٨٩ .

إن الفيلسوف الصينى يفتن أولئك الذين يتعجلون مجئ نظام جديد ، أكثر مما يفتنهم الهمجى الطيب ، أو المصرى الحكيم ، أو العربى المسلم ، أو التركى الساخر ، أو الفارسى المتهكم .

***

إن سياح أوربا بوجه عام يدفعهم حب استطلاع هادئ ؛ أما سياح أمريكا وأفريقيا وآسيا ، فهم أكثر حماسة ، لأنهم مدفوعون بروح المغامرة والطمع والايمان . والهائمون فى عالم الخيال ، يذهبون إلى حد الجنون .

وأولئك عددهم كبير ، وإننا لنحتار فى الاختيار . أنتبع جاك سادير فى رحلته إلى أستراليا ، حيث أقام أكثر من ٣٥ عاماً ؟ أم نتبع الكابتن سيدن إلى « السيفاراسب » ؟ أنتعرف جزيرة كالافا حيث كل السكان عقلاء ؟ أم جزيرة نودلى مثال دماثة الأخلاق ؟ أم مملكة كرينك كسمز العظيمة ؟ أنجد تسلية فى قصة مغامرات جاك ماسيه ؟ ليست هذه الروايات الخيالية بمؤلفات فنية ، فان أبطالها ثرثرة مزعجون لا يخشون التطويل أو الاستطراد الثقيل . يمتلكهم الزهو بأنفسهم ، فلا يوفرون علينا عرض معلوماتهم ولا التحليل المفصل لفضائلهم . أولئك المؤلفون ، أغلبهم من التائهين أو المهاجرين ، يصفون لنا فى كتبهم المشاعر التى كانت سبباً فى مؤاخذة قومهم لهم ، والآخرون بورجوازيون ذوو مظهر هادئ ، يفضفضون أحلامهم المكبوتة .

إن الصيغة لا تتغير : فجميعهم يبدأون بقصة مخطوط قديم ، وجد باحدى المعجزات : ولسنا ندرى لأى سبب يفتن هذا الاختراع الخيالى كل الكتاب على الدوام ، حتى يكرروه ، الواحد بعد الآخر ، كأنه شئ جديد دائماً ؟ — ويحكى هذا المخطوط عادة ، أسطورة بطل مغامر ، عرف أخطار المحيط ، ولما غرق مركبه نزل بأرض مجهولة ، يحسن أن تكون أرض أستراليا . وهنا يبتدئ الموضوع الهام : وصف طويل لأرض لا يعلم بها الجغرافيون ، فيجمعون الذكريات المستمدة من الخيال (١) ، ومن الرحلات البعيدة ، ثم يضيفون إليها بعض البيانات

---

(١) aux utopies من البلاد الخيالية ، utopie فى الأصل بلد خيالى اتخذه توماس مور عنوانا لأحد مؤلفاته ، وأصبحت الكلمة تطلق على كل مشروع مستحيل التحقيق . [المترجمان]

السخيفة المضحكة : فمثلا جاك سادير شخص مخنث ، فيوقعه حسن طالعه فى منطقة كلها خناث مثله ، يقتلون ذوى الجنس الواحد ، إذ يعدونهم مثل الوحوش . ولكن هذه الدعابات ليست إلا حواشى للموضوع . فالغرض الأساسى هو الانتقال إلى أرض خيالية ، والبحث من هناك فى الحالة الدينية والسياسية والاجتماعية لأوربا ، وتبيان أن الدين المسيحى على العموم والمذهب الكاثوليكى على التخصيص هجى غير منطقى ، وأن الحكومة عامة والملكية خاصة نظام جائر مكروه ، وأن المجتمع ينبغى أن ينقلب رأساً على عقب ليتكون من جديد . وحين يتم هذا التبيان ، لا يكون على بطل الرحلة الخيالية إلا أن يعود إلى أوربا ، لكى يلاقى الموت .

والشئ الذى يستلفت النظر فى هذه الروايات هو الرغبة الدائمة فى التدمير والتخريب . ما من عادة أو تقليد لا ينكرونه ، أو فكرة مألوفة لا يرفضونها ، أو سلطة لا يتعرضون لها . فهم يعملون على هدم كل مؤسسة ، ويعارضون بكل ما فى وسعهم . ويظهر شيوخ حكماء فى مواقف معينة ، ويحلون محل رجال الدين فيلقون مواعظ مدنية ، ويشيدون بالجمهوريات التى لا يتطرق إليها الفساد ، وبالحكومات المتسامحة ، وبالسلام الذى يكتسب بالاقناع ، وبالدين بلا قساوسة وكنائس ، وبالعمل المخفض الذى يبدو للعامل كسلاة . ويمجدون الحكمة التى تسود أراضيهم الجديرة بالاعجاب ، حيث فقد الانسان معنى الخطيئة ويضعون تعاليم ضد تعاليم الدين . وعلى إثر ذلك نعود إلى المغامرة بوثبة من وثبات الخيال أو بتعبير ماجن أو صورة خليعة ، تنعشنا وتستثير اهتمامنا ، أو هذا على الأقل ما يظنه المؤلف . ثم يعود إلى تبيان ما فى حياتنا اليومية من مشاق وسخافات وأحزان ، ويصف الأيام السعيدة التى يقضيها الناس هناك ، فى تلك البلاد التى ليس لها وجود .

والشئ الذى يستلفت النظر أيضاً ، هو انتصار الفكر الهندسى . انتظام فى كل شئ حسب الرقم والقياس : فكرة تلاحق المؤلفين جميعاً وتلازمهم حتى فى أحلامهم وجنونهم . هذا الميل إلى التسوية ينطبق على كل مظاهر الحياة ، حتى على اللغة التى لا يجوز أن تتضمن شيئاً تجريبياً ، بل ينبغى أن تكون منطقية تماماً . وهو ينطبق أيضاً على المساكن ، مساكن « الست عشرات » ؛ ففى كل منطقة ستة عشر حياً ، وفى كل حى خمسة وعشرون بيتاً ، وفى كل بيت

أربع حجرات تحتوى كل منها على أربعة رجال : ذلك هو البلد التام الانتظام . وشوارع منتظمة وعمارات كبيرة مربعة ، مبنية كلها على رسم واحد : تلك هى المدينة الجيدة البناء . وحدائق مربعة تماماً حيث تغرس الأشجار فى انتظام حسب فائدة الفاكهة ولذتها : ما أروعه من بستان ! فبالأرقام يستطيع المرء أن يثبت كل شئ ، حتى استحالة بعث الأجساد . فلنفترض بلداً فيه ٤١٦٠٠ قرية فى كل قرية ٢٢ أسرة وفى كل أسرة ٩ أفراد . الحاصل : ٣٨,٢٣٠,٠٠٠ نفساً تمثلون ١٠,٤٠٠,٠٠٠ قدماً مكعباً من اللحم . وتتجدد هذه الكتلة كل ٦٠ عاماً فتخيل ضخامتها بعد مرور ١٠ آلاف سنة : ستكون كتلة ضخمة تفوق حجم الأرض بشكل لا يقدر ولا يتصور ؛ وعلى ذلك فبعث الأجساد شئ محال . — إن الجبال شئ مزعج لما فيها من عدم استواء : لذلك فان الاستراليين لم يترددوا ، فطووها وسووها .

وإذا انتشى الانسان بتلك الأفكار ثم أفاق من حلمه ليجد نفسه أمام الواقع الملموس ، فلا بد أن يحز فى نفسه الألم . أو هو على الأرجح يخضع ذلك الواقع الملموس ، طوعاً أو كرهاً ، لتحويل هندسى ، فيقول إن مجئ المسيح يحير العقل ، إذن فهو ليس حقيقياً ، وإن العهد القديم ليس واضحاً ، إذن فهو ليس صحيحاً ، وإن الحكمة تقضى بألا يقبل المرء شيئاً ما لم يكن مبيناً واضحاً . يقول تيسو دى باتو ، أحد الخياليين وأكثرهم بحثاً وتفكيراً ، وهو مؤلف « مغامرات جاك ماسيه Jacques Massé » ١٧١٠ : « أما وقد سرت منذ أمد طويل فى طرق الهندسة الواسعة المضيئة ، فانى لم أعد أحتمل شعاب الدين الضيقة المعتمة إلا بمشقة . . . إنى أريد فى كل شئ ، الوضوح والامكان (١) . »

إن هذه الكتب مؤلفات تتضمن قسطاً وافراً من الحماقة ، فيها أفكار فجة غير مصقولة ، ولكنها قوية . ومشاعر لم يحسنوا التعبير عنها ، ولكنها مشاعر عظيمة . إنها لا تنبئ عن مجئ سويفت وفولتير وروسو فحسب ، بل عن الروح الديموقراطى أيضاً ، عن روبسبيير .

---

(١) تيسو دى باتو ، رسائل مختارة ، ١٧٢٧ ، رسالة ٦٧ Tyssot de Patot, *Lettres choisies*, 1727. L. 67.

***

لم يكن المراد من السياحة البحث عن المناظر الرائعة ، أو التنزه فى مختلف الأجواء حتى يدرك المرء ما يطرأ على حساسيته من تغيرات ، بل المقارنة بين الأخلاق والمبادئ والفلسفات والأديان ؛ الوصول إلى معنى النسبية ، والمعارضة والشك . وكان بين أولئك الذين ساحوا خلال الدنيا ، أكثر من متحرر واحد .

وقراءة روايات السياحة والأسفار تعنى الهرب والفرار ، تعنى الانتقال من ثبات الفكر إلى الحركة . كم من أفكار خجول كسول واتتها الجرأة بفضل معرفة الصين أو مملكة المغول ! وبازاء هذه المذاهب المتناقضة التى يزعم كل منها أنه يعبر عن اليقين الوحيد ، وبازاء تلك المدنيات المختلفة التى تدعى كل منها تمثيل الكمال الوحيد ، كم تعلمت العقول الشك وعدم الايمان ! « إنهم عميان ، لا خبرة لهم ولا تجربة ، أولئك الذين يظنون أن أوربا قارة تكفى نفسها بنفسها ، وليست فى حاجة إلى جيران . . . لا ريب فى أنها لو استطاعت الاتصال بالاستراليين ، لاختلفت كل الاختلاف عما هى عليه الآن (١) . »

ولكن أوربا لم تتصل بالأستراليين ، بل آثرت الاتصال ببلاد الشرق ، من بين كل البلاد التى ألحت فى هذا الاتصال . الشرق الذى — بالرغم من أن أوربا شوهت صورته — لم يزل بعد يحتفظ بقوة مبتكرة تكفى لكى يقدم للعالم حضارة غير مسيحية ، كتلة من البشر قد بنت بنفسها أخلاقها ، وحقيقتها ، وسعادتها .

لقد كان ذلك أحد الأسباب التى جعلت ضمير أوربا يتعكر ويضطرب ، و بما أنه رام أن ينقلب رأساً على عقب ، فقد انقلب أى منقلب !

---

(١) جبريل دى فوانى « الأرض الاسترالية المعروفة ١٦٧٦ » الفصل الحادى عشر .
Gabriel de Foigny, *La Terre australe connue*, 1676, chap. XI.

الفصل الثانى

من القديم إلى الحديث

القدماء ، القدماء الأعزاء : يا لهم من مثل عجيبة ! كلما أرادوا الكتابة أنتجوا المؤلفات النبيلة . فى ميدان الفلسفة قدموا للعالم مبادئ أخلاق ما كان على المسيحية إلا أن تكملها . وفى ميدان العمل عاشوا كأبطال ، لا أبطال أساطير مثل رولان وأماديس ، بل أبطالا حقيقيين . فاذا أراد امرؤ الكتابة أو التفكير أو الحياة فما عليه إلا أن ينسج على منوالهم .

وعلى حين غرة ، أو هذا ما يبدو على الأقل ، جاء الكفرة المجدفون : المحدثون الذين قوضوا مذابح الآلهة القدامى . أنظر كيف اكتسب هذا اللفظ ، لفظ « حديث » ، قيمة ليس لها نظير : تعبير سحرى يرد جبروت الماضى . وبعد ما كان الناس يبدون عصريتهم فى خجل واستحياء ، أصبحوا بها مختالين ، اختيالا يستفز ويثير . لقد تخلوا عن حزب الأموات العظام مستسلمين إلى متعة رخيصة ، متعة الاحساس بحياة فتية ولو كانت فانية ، مؤثرين الرهان على الحاضر بدلا من الماضى . معتقدين كما يعتقد تريفلان إحدى شخصيات ماريفو le Trivelin de Marivaux أنه لا فخر فى أن يحمل الانسان على عاتقه أربعة آلاف عام ، فانه حمل لا يطاق . فنشأ اعتقاد باطل ما زلنا به متشبثين . « إن الجديد ، مع أنه زائل من أصله ، يبدو لنا ميزة لها من القيمة ما يجعل غيابها عنا يفسد المزايا الأخرى ، ووجودها يقوم مقام كل المزايا : فنحن مضطرون إلى أن نظهر دائماً متقدمين فى الفنون والأخلاق والسياسة والأفكار ، خشية الحكم علينا بالاجداب والهوان والمضايقة — ونحن مفطورون على ألا نقدر إلا دهشة المفاجأة وتأثيرها السريع . . . (١) »

ما السبب فى هذا الانتقال الجديد من الماضى إلى الحاضر ؟ ما السبب

---

(١) بول فاليرى «نظرة إلى العالم الحاضر» ١٩٣١ ص ٩٦١ .

Paul Valéry, *Regards sur le monde actuel*, 1931, p. 161.

فى أن شطراً من الفكر الأوربى قد تنكر للقدماء الذين آمن بهم عصر النهضة والعصر الكلاسيكى ؟ إن النزاع الشهير ، النزاع بين القدماء والمحدثين الذى يفسرون به هذا التقلب ، ليس إلا علامة له ، فينبغى أن نبحث فى علة وجوده .

فى أعماق الضمائر ، أضاع التاريخ من قيمته حتى أفلس ؛ بل إن نفس الشعور « بالتاريخية » كان يسير إلى الزوال . وإذا تولى الناس عن الماضى فلأنه تراءى لهم غير مؤكد ، غير محقق ، غير صحيح . لقد فقد الناس الثقة بمن يدعون معرفته ، فاما أن أولئك كانوا يخطئون ، وإما أنهم كانوا يكذبون . فحدث ما يماثل الانهيار الشديد ، وصار الناس لا يرون شيئاً مؤكداً إلا الحاضر ، فانتقل السراب من الماضى إلى المستقبل .

***

فى أول الأمر اتضح أن كلام المؤرخين المحدثين ليس محل وثوق . وكان عددهم كبيراً : ميزيراى Mézeray ، الأب سيمبورج ، فاريلاس Varillas ، فيرتو Vertot ، سانت ريال Saint-Réal ، الأب دانييل ، الأب بوفييه Buffier الذى أجمل الملوك والملكات والحروب والمعاهدات والممالك والولايات والمدن فى أشعار صغيرة يمكن حفظها عن ظهر قلب ، ولورانس إيشارد ، وإدوارد هايد ، والكونت دى كلارندون ، وآبل بوابيه ، Abel Boyer وأشهرهم جلبرت بورنيت ، Gilbert Burnet ، ثم أنطونيو دى سوليس ، الذى أهدى إلى أسبانيا فى عام ١٦٨٤ مؤلفه الرائع «تاريخ غزو المكسيك» . فضلا عن عدد كبير من الآخرين الذين يتمنون أن ننتشلهم من مملكة النسيان ، ولكن العدل يقتضى أن نتركهم هناك . وهم وإن كانوا يختلفون كثيراً ، فقد كانوا يتفقون فى نقط عديدة : فالتاريخ مدرسة للأخلاق ، إنه محكمة سامية ، هو ملهاة للأمراء الصالحين ، ومأساة للأمراء الطالحين . إنه يعلم دراسة الخلق لأنه « تحليل معنوى للأفعال البشرية » . وهو على التخصيص عمل فنى ، فكما يقول كورديموا « يحسن أن نخصص وقتنا لتنميق الانشاء ، وترتيب الحوادث التاريخية ، بدلا من تمحيصها . كما أنه يحسن أن نراعى جمال الأسلوب وقوته ووضوح الكلام وإيجازه بدلا من أن نبدو صادقين فيما نكتب » . إن التاريخ دراماتيكى مؤثر ، يقتضى ترتيباً مسرحياً فاخراً ، فالحروب والمؤامرات والثورات والانقسامات موضوعات جميلة وبادة دسمة .

وهو خطابي ، يقترب من الشعر الذي هو وجه من وجوه البلاغة . وهو نبيل شريف ، فالجزالة مصدره الطبيعي . وهو ، لا جرم ، يتضمن خطباً ووصفاً وأمثالا وتحليلا ومقابلة ، كالمقابلة بين شار لكان وفرنسوا الأول : « إن المشيئة الالهية لم تكتف بأن يولدا في وقت واحد وفي مملكة واحدة وفي قرابة وثيقة ، بل شاءت أن يستمدا تألقهما كل من الآخر . وتلك حقيقة لا مراء فيها ، حتى إنه لما انهزم فرنسوا الأول ، بقى الثاني بلا فضيلة ولم يرتكب إلا أخطاء في إثر أخطاء . فلنبدأ هذه المقارنة الشهيرة بما هو أكثر خفاء في تاريخ أبطالنا العظماء ، ولنكمله إذا استطعنا بالدقة التي يتحراها أرسطو وفلوطرخس أكبر العلماء في هذا النوع من الكتابة . . . (١) » .

وجملة القول في ذلك ، أن جميع المؤرخين في ذلك الوقت أرادوا أن يحذو حذو « تيت ليف » وأن يكونوا أبلغ منه . ولا ريب في أنهم ارتضوا جميعاً ذلك الدستور الذي وضعه أحدهم وهو الأب لى موان : « إن التاريخ لرواية متصلة لأحداث حقيقية ، أحداث عامة عظيمة ، كتبت في حكمة وبلاغة وتقدير ، لتعليم الأفراد والأمراء ولصالح المجتمع المدني (٢) » .

ولقد كانوا يكتبون مقدمات جميلة ، يقولون فيها إن اهتمامهم إنما يتجه إلى العدل وعدم التغرض . إلا أنهم لا ينسون أيضاً أن من واجبهم الدفاع عن ملوكهم وبلادهم ودينهم ، ولذا فقد كانوا يماشون طبقاً للظروف ، ولا يتحرون الحقيقة فقط بل يدافعون أيضاً عن آرائهم الشخصية . ففي الجدال بين الكاثوليك والبروتستانت ، تجد من كان يمدح لويس الرابع عشر ، ومن كان يمدح وليم أمير أورانج . وهكذا نشبت منازعات لا نهاية لها ، أشهرها ما صحب كتاب جلبرت بيرنت « تاريخ إصلاح كنيسة انجلترا » (١٦٧٩ - ١٧١٥) ، وكتابي الأب مامبورج « تاريخ مذهب لوتر ١٦٨٠ » ، « وتاريخ مذهب كالفين » ١٦٨٢ ؛ وكتاب فاريلاس « تاريخ ما وقع في أوربا من ثورات دينية » ١٦٨٦ - ١٦٨٩ .

وما كان يعوقهم شيء ، فقد أخذ (سان ريال) يحول حياة دون كارلوس

---

(١) فاريلاس : تاريخ فرنسوا الأول، ١٦٨٤ Varillas, *Histoire de François Ier.*, 1684.

(٢) الأب لى موان : في التاريخ ، ١٦٧٠ Le P. Le Moyne , *De l'Histoire.* 1674.

obeikandi.com

ومؤامرة الاسبان ضد جمهورية البندقية إلى رواية : فما دام الروائيون يقتبسون موضوعهم من التاريخ فلماذا لا يجعل المؤرخون من التاريخ رواية وهى لا تقل عنه كثيراً من ناحية الخطأ ؟ — لما تقدم العمر بفاريلاس وكل بصره ، كان يملى فى كل يوم عدة ساعات دون أن يتحقق من شئ مما يمليه . وهو على كل حال لم ينتظر الشيخوخة حتى يخترع الحوادث . فقد نعى عليه أحد خصومه أنه روى — فى سياق مختلقات أخرى — النهاية المؤثرة لحب فرنسوا الأول مع محظيته مدام دى شاتوبرياند : فطبقاً لقول فاريلاس نجد أن مسيو شاتو برياند ، عقب عودته من بافى Pavie فى عام ١٥٢٦ ، قد حبس زوجته الخائنة فى غرفة مجللة بالسواد . وأنه فى سبيل لذة الانتقام ، كان لا يتورع عن أن يشاهدها خفية تتلوى ألماً ويأساً ، حتى قتلها ذات يوم بنقل دمها بواسطة الأطباء . إلا أن الواقع أن فرنسوا الأول وهب السيدة المذكورة فى رحلته إلى بريتانى فى ١٥٣٢ غلة ممتلكات عديدة . وقد تركت غلة أموالها لزوجها بعد وفاتها عام ١٥٣٧ .

عندما كتب لورانس إيشارد تاريخ انجلترا منذ يوليوس قيصر ، قدر أن عصراً راقياً كالعصر الذى يعيش فيه ، لا يصح أن يرجع إلى مؤلفات الكهنة غير المتقنة ، حتى إنه قنع بتقليد ما أعجبه من مؤلفات القدماء والمحدثين : معترفاً بذلك ، بما اعتاد الآخرون أن يفعلوه ، دون اعتراف . — وما ذكر لنا من نوادر ، لا يستبعد أن يكون صحيحاً : لما انتهى (فيرتو) من كتابة قصة حصار مالطة ، وأطلعوه على الوثائق ، أجاب بأن الوقت قد فات ، فقد انتهى الحصار . وذهب الأب دانيال إلى المكتبة الملكية ، حيث قضى ساعة بين المجلدات ، ثم أعلن أنه قد أصاب كفايته . فياله من رجل سعيد ! ويقول هو نفسه إن ذكر المخطوطات شئ يشرف المؤلف ، وأنه اطلع على عدد كبير منها ، ولكن هذه المطالعة سببت له من العناء أكثر مما سببت من فائدة . وصدقناه بسهولة .

كيف تصمد عمارة على هذه الفخامة — وعلى هذا الضعف — لأقل صدمة ؟ لقد تطرق الشك منذ ذلك الوقت إلى ضمائر أولئك المؤرخين . فانهم علماء فى اللغات والآداب القديمة ، ولكنهم جاءوا متأخرين . وهم يدركون ذلك التأخر . بدأ وخز الضمير ينخسهم ، فحتى فى نصرهم لا يشعرون براحة بال ، يتساءلون فى قلق ، وهم يتظاهرون بالكبر أمام الجمهور : ترى أين الحقيقة ؟ Quid est Veritas ?

هل الحقيقة لا تعدو الاحتمال البسيط فى الوقائع غير الثابتة ؟ « أهى ذلك المظهر المتطفى الذى تتراءى فيه الأمور بعد قليل من التفكير ؟ » أهى موافقة نفسية ؟ أهى انسجام يتولد من تأليف متقن ؟ أهى ابتداع فنى ؟ ما أصعب الوصول إليها ! ولعمرى إلى أى حد يسمح للمرء فى ذلك السبيل ؟ ولعل للمرء الحق فى أن يبحث عند الغير وأن يدخل المكاتب وأن يكشف الستار الذى يخفى أسرار الأسرة للبحث عما يشفى حب استطلاع الناس ؟ ما أكثر ما وصف كاتبان أو أكثر حصاراً واحداً ، أو معركة واحدة ، واختلفوا فى التفسير ، فترى أى تفسير نختار ؟ وبأى معجزة تتخذ الأحداث لوناً روائياً ، بمجرد ما يتناولها قلم المؤلف ؟ هذه هى المسائل التى تحير المؤرخين . ولا ريب فى أن المؤرخين سطحيون عاجزون عن البحث المستديم ، كثيرو الكلام فى غير ما يفيد ، وفى نفس الوقت متعجلون ، وأنهم بارعون فى تذليل المشاكل ، لا يعرفون كيف ينفذ المرء إلى المصادر ، ولا كيف يهتدى تحت الطبقات المتراكمة إلى اللون الأصيل ، وتنقصهم روح النقد والتحليل : ولكنهم يعجزون عن التخلص من بعض القلق الخفى ، الذى نلمس آثاره فى كتاب « منهج لدراسة التاريخ » الذى نشره فى عام ١٧١٣ (لنجليه ديفرنوا) : رجل ذو ذهن حر ولكنه مهوش . يقول : « حذار ، لا شئ أشق من تجنب الخطأ ، خذوا حذركم واتبعوا قواعد أكيدة ؛ لا تقبلوا كل شئ ، بل افحصوا ، وتثبتوا ؛ وشكوا إذا لزم الشك . أمام كل غريب وشاذ ؛ وابحثوا عن الأسباب التى قد توقع المؤرخ فى الخطأ ، والتى قد تدفعه إلى خداعكم . انتقدوا : وإلا أعطينا الحقيقة والكذب نفس السلطة . » ذلك هو موضع الخطر ، فلقد عبروا عنه بكلمة كثيراً ما تتردد على الألسنة ، بكلمة ، كرهوها ولكنهم عجزوا عن استبعادها : فالى الشك Pyrrhonisme الذى أفزع باسكال ، أضافوا كلمة « التاريخى » .

فى عام ١٧٠٢ كلف العلامة الشهير يعقوب بيريزونيوس أستاذ التاريخ اللاتينى واليونانى فى جامعة ليدن ، بتدريس تاريخ الأراضى الواطئة . فخطب خطبة افتتاحية كالعادة أمام حكام البلدة والطلبة وزملائه المدرسين ، واختار موضوع خطبته « الشك التاريخى » . فقال فى كلمات لاتينية رائعة : إننا أصبحنا فى زمن تغالى أهله فى نقد كل شئ ؛ وإن التاريخ فى أزمة مستحكمة ، إذ يصدق البعض بحماقة ما يفسده من قصص ، بينما ينكر الآخرون كل ما فيه . وإن هذه

الحالة الذهنية الأخيرة البراقة ، الجذابة ، قد سرت وتوطدت ، حتى أصبحت على جانب كبير من الخطورة . فلو أنها انتصرت لضاع كل شئ ولوقع الناس فى ارتياب عالمى . لذلك أكد الخطيب احتمال وجود الوثوق التاريخى . واختتم خطبته بقوله : إلى الجحيم أيها الشك !

ولكن كان أساسه الكثير ، فهناك ثلاث فرق على الأقل تهاجم التاريخ : الديكارتيون الذين يعتقدون مثل زعيمهم أنه لا على الرجل الفاضل إذا لم يعرف اليونانية واللاتينية أكثر مما يعرف السويسرية ، ولا عليه إذا لم يعرف تاريخ الامبراطورية الجرمانية أو الرومانية أكثر مما يعرف تاريخ أية دولة صغيرة فى أوربا . وأتباع مالبرانش الذى قال إن المؤرخين لا يفكرون بل يسردون أفكار غيرهم ، وإن آدم كان يملك ناصية العلم فى الفردوس ، فهل كان يعرف التاريخ ؟ كلا بالطبع . إذن فالعلم الكامل ليس هو التاريخ . أما مالبرانش ذاته فكان يكتفى بمعرفة ما عرفه آدم . . . بل يرى أن الحقيقة لا توجد إلا بالتفكير العميق ؛ فالحقيقة ليست تاريخية بل ميتافيزيقية . — أما أتباع جانسينيوس(١) ، الأخلاقيون المتزمتون ، فلم يكونوا مرتاحين إلى هذا

---

(١) مذهب جانسنيوس أو *Jansénisme* .

كتب جانسنيوس ، اللاهوتى الهولندى ، عام ١٦٤٠ ، مؤلفاً ضخما بعنوان « أوجستينوس » حيث شرح مذهبه عن النعمة الالهية والجبرية . وهذا المذهب يرمى إلى : ١) تحديد حرية الاختيار البشرى : لا يستطيع الانسان شيئاً وحده ، بل كتب نصيبه منذ الأبد ، ٢) إنكار معقولية النعمة الالهية ، والاعتقاد بفساد الانسان منذ سقوطه : فان الانسان بغلطة آدم قد فقد كل حق فى النعمة ، وينعم الله على من يشاء .

هذا المذهب دافع عنه لاهوتيو « بورت رويال » Port Royal بزعامة سان سير وارنو Arnauld ، وأثار معركة كبيرة مع الجزويت ، موضوعها المسألة الاخلاقية الانسانية كلها : ١) إما أن الانسان يفرق مختاراً بين الخير والشر ، ولا يتدخل الله الا للحكم ، وإذن فلا وجود للجبرية وبالمثل للنعمة ، ٢) وإما أن الله يعطيه كل شيء ، الارادة والعمل ، ويحيط علمه تعالى منذ الأبد بنتيجة كفاح الانسان . وقد أخذ باسكال جانب الدفاع عن أتباع جانسنيوس ، وبوحى من علماء بورت رويال ، كتب ضد الجزويت « رسائله القروية » *Lettres Provinciales* التى تعد من الوجهة الأدبية المثال الفذ للنثر الحديث .

كان من الطبيعى أن تستفز مسألة «النعمة» هذه فليسوفا كفولتير ، الذى فندها فى =

النوع من شهوة المعرفة الأبدية « L'éternelle libido sciendi » . ولكن أعنف الخصوم كانوا المتحررين .

ذلك لأن التاريخ كان يبدو لهم بمثابة عدو شخصى ، فادعوا أنه موضع شك وبطلان ، وأنه وضيع لأنه كله تملق لأصحاب السلطان ، وأنهم ينسقونه كما لو كانوا ينسقون صحاف الطعام ، فيضعون نفس الطعام ، فى عدد من الصحاف يعادل عدد البلاد الموجودة فى الدنيا ؛ فاذا تحتم علينا أن نقرأه ، فليس لمعرفة الأحداث بل لكى نعرف كيف يفسرها كل رجل وكل حزب وكل شعب ؛ والخلاصة أن التاريخ كله لم يكن إلا شكاً مستمراً .

وكان الفرنسيون يمتازون بحماسة هجومهم ، ولكنهم لم يكونوا وحدهم ؛ ففى ليبزج كان (منكن) J. B. Mencken يهاجم المؤرخين جاعلا إياهم من طائفة الدجالين . دجالون ، لأن بعضهم يحشون رواياتهم بخطب مملة طويلة — تقليداً للمؤرخ الرومانى المجيد تيت ليف — وينسبون أرق الحكم والأمثال إلى أغلظ الناس ؛ ولأن البعض الآخرين يملئون صحائفهم بزخرف قديم كأنما يخشون ألا يجدوا قراء ما لم يقدموا لهم مناظر مشوقة بديعة ؛ ولأن غيرهم يخترعون سلاسل الأنساب ويزورون الوثائق ، تملقاً للعظماء الذين يدفعون لهم الأجر . أما الفرنسى فاريلاس فدجال مع الدجالين ؛ ولكن المؤرخين على العموم دجالون جميعاً ، ما داموا يعدون فى مقدماتهم بأنهم سيقدمون للجمهور حقيقة لا تظهر للناس أبداً . . .

= قاموسه الفلسفى بأسلوبه الرائع : لا شك فى أن أول من تكلم عن النعمة هوميروس . . . لكن بين الفلاسفة من لم يشارك هوميروس فى رأيه هذا ، زعموا أن العناية الالهية انعامة لا تتدخل مباشرة فى أمور الأفراد الخاصة ؛ بل هى تحكم كل شىء بمقتضى قوانين شاملة . عند هؤلاء الفلاسفة أن العشب والبلوط ، والسوس والفيل ، والانسان ، والعناصر والكواكب تطيع كلها قوانين ثابتة لا تتغير ، وضعها الله منذ الأزل . . . يصعب على أولئك الفلاسفة أن يأخذوا جانب الزاعمين بأن السيد المطلق على الناس يهب مالا لعبد ، ويمنع الغذاء عن الآخر . . . يقولون إنه إذا وجد ذئب فى طريقه عنزة صغيرة ليتعشى ، وإذا كان ذئب آخر يموت جوعا ، فان الله لم يعن نفسه بأن يمنح للذئب الأول نعمة خاصة . . . (مقتطف من القاموس الفلسفى *Dictionnaire Philosophique* ؛ باب الغفران ، وبيان رقم ٢٠) وأنظر أيضاً « باسكال » بقلم Stephen Valot الفصل ٢٩ ، وأفكار باسكال بقلم F. Strowski . [المترجمان]

ووافق الحكماء على ذلك قائلين : هذا صحيح بلا نكران . فبعد كل ما كتبه المؤرخون عن فرنسا لم نجد تاريخاً واحداً لفرنسا يستحق التقدير ، ولا تاريخاً لانجلترا ولا أى تاريخ كان . فالناس فيما سبق كانوا يصدقون بغير تفكير ، أما الآن فقد حلت ساعة الشك والارتياب . « ألا نكون على صواب إذا عددنا عصرنا هذا عصر الشك التاريخى ؟ (١) »

ولكن الشك فى التاريخ الرومانى أيضاً ، والظن فى أن المؤرخين القدماء لم يكونوا أقل من الآخرين محاباة وتحيزاً ، ولا أقل خفة وتطيراً ، ولا أقل دجلا وتحايلا — قد يكون أليماً موجعاً .

كان كل الأدباء على معرفة وثيقة بروميولوس ومن سبقه ولحقه من الأبطال . فلقد درسوا تاريخهم فى المدارس وكتبوا بلغاتهم ، وحفظوا رسائلهم وخطبهم . وكان ذلك التاريخ الموقر مرتباً ترتيباً يستحق الاعجاب ، وكان مسرودا فى أسلوب فيه من النبل والتوكيد ما يجعله بريئاً من كل احتمال للكذب أو التدجيل . كان قصة بطولة واقعية : فى ذات يوم — وعلى وجه التحقيق فى عام ٢٨٢٤ أى أربعمائة سنة قبل إنشاء روما — حضر (إينى) إلى (اللاثيوم) مع الطرواديين الذين هربوا مذعورين من النار واللهيب التى حولت (ايليوم) إلى رماد ، بعد أن ضل فى البحار ثلاث سنوات . وكان لاتينوس يحكم هذه البلاد ؛ وقد أشفق هذا الأمير الكريم على بؤس إينى فأكرم وفادته وأراد أن يستبقيه برابطة رقيقة قوية ، فزوجه بابنته (لاتينى) . وكان ثورنوس أميراً غيوراً يحارب اللاثيوم ، فارتد وانهزم . وبوفاته أصبح اللاثيوم فى سلام . ونال إينى صولجان الملك الذى تركه لاتينوس حين وفاته كميراث يؤول إلى زوج ابنته (٢) . كل ذلك كان ينتظم كمسرحية جميلة ؛ إن هؤلاء الرومان كانوا يبدون حقيقيين ، بما يرتدون من خوذ ذات ريش وثياب قصيرة ، — كأولئك الذين يشاهدهم الناس على المسرح .

---

(١) بوليان Paulian : « نقد الرسائل الرعوية لجورييه » ، ١٦٨٩ ص ٧٨ .

(٢) لورنس إيشارد : التاريخ الرومانى ابتداء من تشييد مدينة روما ، ١٦٨٤ .
فيرتو : تاريخ الثورات التى حدثت فى حكم الجمهورية الرومانية ١٧١٩ .

D'après Laurence Eachard, *The Roman History from the building of the City...* 1694. Vertot, dans son *Histoire des Révolutions arrivées dans le gouvernement de la République romaine* (1791); s'il varie quelquefois sur les faits, ne parle pas autrement.

لكن لا . فقد كان على الأدباء أن يصححوا ، مع شديد الأسف ، الصورة الكاذبة لهؤلاء الأصدقاء الأعزاء ، وربما كان عليهم أن يقنعوا أنفسهم أنهم لم يكونوا غير أشباح ؛ ولسوف ينبلج الصباح ، وينصرفون مع الظلام . إن صوتاً أعلن أنهم غير حقيقيين ، ولم يكن صوتاً باطلا . بل لقد تجاسر ثقال إن الناس هم الناس ، فهم مشغوفون بالباطل ، سريعو التصديق ، شديدو الحساسية فيما يتعلق بالأصول والأنساب : فالناس اليوم ، كما كانوا من قبل ، كل يطالب لشعبه بألقاب الأقدمية الزائفة . لقد اخترع الرومان خرافات خيالية ارتضيناها وأحببناها ؛ يقول سانت افريموند :

« لم يكن ينقص الرومان هذا الزهو والخيلاء . إنهم لم يقنعوا بالقرابة مع ينوس عن طريق « إينى » قائد الطرواديين فى أرض إيطاليا ، بل وطدوا حلفهم مع الآلهة بفضل الولادة الروائية لرومولوس ، الذى اعتقدوا أنه ابن الاله مارس ، واتخذوا منه إلهاً بعد مماته . ولم يكن فى خلفه « نوما » صفة تؤهله للألوهية ، ولكنه حظى بفضل قداسة حياته بعلاقة خاصة مع الربة إيجريا . . . لم تكن للأقدار مهمة أخرى غير إنشاء روما إذا صدقنا أقوالهم . . . فالى هذا الحد سهرت العناية الالهية على التوفيق بين مختلف مواهب سلوكها ومختلف حاجات شعبها » .

« لشد ما أبغض الاعجاب القائم على الأقاصيص أو على خطأ فى التقدير ! ففى تاريخ روما أحداث أخرى حقيقية تستحق الاعجاب ، حتى إنه ليس من صالح الرومانيين أن يقوم تكريمنا لهم على الروايات والأساطير (١) » .

هذا الصوت الواضح ، هذه الأفكار الجسور كانت تعكر صفو الايمان الهادئ . كيف نستطيع أن نميز بين الأحداث الحقيقية ، التى يريد منا سانت أفريموند أن نعجب بها ، وغير الحقيقية ؟ وعلى وجه التخصيص كيف نستبعد فكرة مجموعة كاملة التنسيق ، ونستبدل بها فكرة التطور التى لا يكاد الناس يتصورونها إذذاك ؟ كيف نرد الماضى ونطيح به إلى أغوار الزمان ، بدعوى عجزنا عن تفهم حقيقته إلا هناك فى طيات الظلام ؟

فى ليدن أنكر يعقوب جرونوفيوس وجود رومولوس . وفى أكسفورد أثار هنرى دودويل حول وجوده الشكوك . منذ ألفين وخمسمائة عام والمؤرخون

---

(١) سانت افريموند : « تأملات فى مختلف مميزات الشعب الرومانى » . . .

Saint-Evremond, *Réflexions sur les divers génies du peuple romain, dans les différents temps de la République.*

يروون أن الكاهنة سيلفيا أنجبت طفلين عقب حبها لمارس : رمولوس وريموس . وأن هذين الطفلين وضعا فى الكابيتول ورضعا من ذئبة : بيد أنها قصة سخيفة لا تستحق عناء التكذيب . من المؤكد أنه لا يوجد تاريخ غير التاريخ المقدس ، لا يقوم فى أصله على الأقاصيص والأساطير . إن تاريخ روما قبل رومولوس ليس أهلا للتصديق ، ولعل قصة رومولوس أيضاً من قبيل الاختلاق . . . ذلك ما بدأت تلوكه ألسن الناس . وسنرى فيما بعد ، كيف يستبعد الارتياب المطلق ، صحة القرون الأربعة الأولى لتاريخ روما .

أما التاريخ اليونانى فلا يستحق عناء الكلام : إنه يبدو أكثر خداعاً . هل تصدق أن الأثينيين ، أعلم الناس طراً ، لم يكن لديهم تاريخ منظم إلا فى زمن متأخر جداً ، بمعنى أنهم لم يعرفوا أصلهم ونشأتهم مطلقاً ؟ لقد خلطوا كل شئ ، خلطوا السنين ودورات السنين ، ولم يعرفوا حتى تواريخ أعيادهم ؛ فان أريستوفان يظهر الآلهة على المسرح ، شاكين من أن القمر لا يخبرهم فى الوقت المناسب ، بمواعيد الأعياد العامة ، الأمر الذى يحرمهم من تلك المناسبات السعيدة ، فيعودون إلى السماء ساغبين . فكيف نصدق بعد ذلك المؤرخين اليونانيين ؟

لقد أخذ الناس يدركون أن الأمر لا يقتصر على أنهم لا يعرفون الحقيقة فى التاريخ القديم فحسب ، بل إن الوسائل اللازمة للوصول إليها تعوزهم . كيف كان القدماء يقيسون الوقت ؟ كيف كانوا يعدون السنين ؟ أظن أنه لا بد من أن نعرف ذلك قبل أن نتكلم عن حقائق حياتهم : وإلا حكم علينا بأننا دائماً نخالف الدقة والصواب ، ولا نقول إلا هراء .

بدأت هذه المسائل الهامة تشغل أذهان المجامع العلمية ، مثل الأكاديمية الملكية للتاريخ والآداب . وما من شك فى أن أعضاء هذه المجالس لا تنقصهم المعرفة ولا قوة الارادة ، إلا أنهم يفتقدون المنهج الأكيد . إنهم يفحصون ويستريبون ويظهرون حب استطلاع لا يعرف القناعة ، وأخيراً يكتسبون تلك الحكمة المؤسفة : معرفة المرء أنه لا يعرف شيئاً !

***

فليكن ، لنترك ما هو غير دينى ، ولا نثق إلا بالتاريخ الوحيد الموثوق به ، التاريخ الذى أملاه الله . هنا يصبح كل شئ سهلا يسيرا . لقد انقضى منذ بدء

الخليقة حتى مجئ المسيح أربعة وأربعة آلاف عام ، أو قل أربعة آلاف عام ، تفادياً للمناقشة والانتقاد . وفى عام ١٢٩ أخذت الأرض تغص بالناس ، وزاد الاجرام . فى عام ١٦٥٦ حدث الطوفان . فى عام ١٧٥٧ بدأ تشييد برج بابل . وفى عام ٢٠٨٣ بدأت دعوة ابراهيم . وأنزل القانون المكتوب على موسى بعد دعوة ابراهيم بثلاثين وأربعمائة عام ، وبعد ٨٥٦ عاماً من الطوفان ، وفى نفس السنة التى خرج فيها الشعب العبرى من مصر . على ضوء هذه التواريخ الثابتة ، يرى بوسويه ، حينما يكتب مؤلفه النبيل « مقال عن التاريخ العالمى » ، سلسلة من العصور تنتظم وتحدد نفسها بنفسها على مر الزمان ، وهكذا يمتد — تحت أروقة هائلة منسجمة — طريق النصر الذى يوصلنا إلى المسيح . كم كان يلذ للناس أتباع ذلك الطريق ، حتى إن بعض النفوس الغريرة الساذجة ملأت حياتها بتلك المطابقات التاريخية والذكريات ، مشيدة بالسنة ، بل بالشهر ، بل باليوم الذى وقع فيه ذلك الحدث الشهير الذى يذكره التاريخ المقدس أو ذاك . فكان المؤمنون يفتحون كتب الصلوات : ١٨ فبراير عام ٢٣٠٤ قبل ولادة السيد المسيح ، أطلق نوح يمامة خارج السفينة ؛ فى ١٠ مارس ، تراست إلى عيسى أخبار عن مرض « لعازر »(١) ؛ فى ٢١ مارس لعن عيسى شجرة التين (٢) ، فى ٢٠ أغسطس عام ٩٣٠ ، مات آدم ، أول رجل (٣)...

جاء علم التاريخ يناقض تلك المعتقدات البسيطة ، ذلك الاطمئنان .

كان يبدو كنظام متواضع ، مفيد للتلاميذ ، لتعمير ذاكرتهم ولمنعهم من الوقوع فى إبهام أحمق مرذول : ولكنه خشن جاف ، جسم نحيل هزيل ، لا ترى فيه إلا العظام والعروق . إلا أنه كلما ازداد إحساس الناس التهوش فى جعبة الذكريات القديمة ، كلما ازداد هذا العلم منزلة وأهمية ؛ وأصبح فناً ضرورياً بل

---

(١) «وكان إنسان مريض وهو لعازر من بيت عنيا من قرية مريم ومرثا أختها . . . . وأرسلت الأختان إليه قائلتين ياسيد هوذا الذى تحبه مريض» (العهد الجديد ، يوحنا ، الاصحاح الحادى عشر ، ١). [المترجمان]

(٢) «وفى الصبح إذ كان راجعا إلى المدينة جاع . فنظر شجرة تين على الطريق وجاء إليها فلم يجد فيها شيئاً إلا ورقاً فقط . فقال لها لا يكن منك ثمر بعد إلى الأبد . فيبست التينة فى الحال» العهد الجديد . متى ٢١ ، ١٨ . [المترجمان]

(٣) هانرى بريموند Henri Brémond ، «التاريخ الأدبى للشعور الدينى فى فرنسا» ١٩٣٠ جزء ١٠ ، الفصل السادس .

علما . لقد سموه علم « الأزمان والتواريخ » . « مثلما تهيئ الملاحة للبحارة قواعد تقودهم فى خضم البحر دون ضلال ، فى الأسفار النائية ، فان علم التاريخ يهيئ لنا قواعد تضمن لنا سلامة الارتحال فى غياهب الزمن القديم الواسعة المظلمة » حقاً ما أطولها رحلة ، على مر القرون الغابرة والأجناس الفانية ! و إذا كان هذا العلم لا يعى قوانينه بالضبط فانه على الأقل يطبقها : فهو يقدر صحة النص أيا كان ، بالحساب والأرقام ، لا بما يستند إليه من نفوذ وسلطان ، لا يهتم باللغة التى كتب بها النص ، فرنسية كانت أو لاتينية ، يونانية كانت أو عبرية ؛ لا يبالى مصدر النص وصفته ، بل ينتقل من اللادينى إلى المقدس بطبيعة كيانه التى إن هى إلا الحساب ؛ فهو لا يعرف إلا شيئاً واحداً ، هو أنه ينبغى أن يحسب بالتحقيق والتدقيق . إن الاخصائيين ، مفتشى ومحققى الحسابات التاريخية يعملون فى داخل مكاتبهم ، منكبين على كتبهم ، يفحصون ويقارنون ، عاكفين على أشغال مضنية « جاحدة » و إن كانت فى الظاهر هادئة سالمة : فهم يجدون تسليتهم وهوايتهم فى تسجيل التواريخ ، وحساب السنين . وهم يتنازعون فيما بينهم ؛ فاذا سمع الناس ضوضاءهم ، ضحكوا قائلين : أدعياء يتسلون . وعندما ينتهى أولئك العلماء من عملهم ، أو على الأصح عندما يصلون فى بحثهم إلى شوط بعيد (لأنهم شرعوا فيه منذ زمن بعيد ، منذ النهضة ، ولن ينتهوا منه أبداً) سوف يعكرون صفو الضمائر أكثر مما يعكره العصاة والكفار ، إذ يؤمنون على أنه ليس فى الماضى شئ أكيد . والحق أنهم ليسوا جميعاً غير مصدقين ، فالبعض يعملون للدفاع عن التواريخ التقليدية ضد المؤرخين المحدثين ، حتى إنه نشب بينهم جدال عنيف ، طال سنين . سنرى ليبنتز ونيوتن يشتركان فيه .

ولقد كان الحساب الجارى يبدو سهلا يسيراً . عاش آدم مائة وثلاثين سنة وولد له ولد على شبهه كصورته وسماه شيثاً . وكانت أيام آدم بعد ما ولد له شيث ثمانمائة سنة ؛ وولد له بنون وبنات . فكانت كل أيام آدم التى عاشها ثلاثين وتسعمائة سنة ثم مات . وعاش شيث خمساً ومائة سنة وولد له أنوش . وعاش شيث بعدما ولد أنوش سبعاً وثمانمائة سنة ...(١) ومجموع هذه الأنسال

---

(١) نقلنا هذا الكلام حرفيا من العهد القديم «تكوين ، الاصحاح الخامس ، ١ - ٥». [المترجمان]

المتابعة يقدر بأربعة آلاف عام ، هي المدة التي انقضت بين خلق العالم وولادة المسيح . ولكن ربما فقدت من هذه السلسلة حلقات ، ولعل ذلك التعداد لم يبلغ مرتبة الكمال ؛ ومن المحتمل أنه كان للعبريين طريقة خاصة في الحساب ، وإذا أراد علماء التاريخ ، لكي يخرجوا من الارتياب ، أن يستعملوا أصول القياس ، ويبحثوا عند الشعوب المتاخمة لليهود عن تواريخ وأرقام ، فيا للسماء ! ما أوسع هوة الاختلاف ! إن المشاكل تتكاثر وتتراكم ولا يصلون إلا إلى ظلام .

وإذا نفذنا مباشرة إلى جوهر الموضوع نجد أمتين تنسفان حدود هذا التاريخ زاعمتين أن تاريخهما لا يقف عند أربعة آلاف عام . — فهي حقبة من التفاهة بمكان — بل يمتد بهما إلى عشرات بل مئات آلاف من الأعوام . إن المصريين الذين أوتوا رجاحة العقل وصحة التقدير ، والذين كانوا دائماً محل تقدير وموضع إعجاب ، يظهرون في مسألة التواريخ مبالغين إلى حد الجنون . ولما كانوا مصرين على قدمهم وعراقة أصلهم فقد اعتقدوا « أنه شئ جميل أن يتيهوا في هوة القرون اللانهائية التي تقربهم من الأزلية » إلا أن تكذيب أقوالهم كان مشكلة لأنهم بارعون في الحساب ولديهم تواريخ منظمة أتم نظام . ففي القرن الثالث عشر قبل الميلاد كان مانيتون الشهير كاهن هليوبولس ، قد كتب تاريخ مصر بأمر بطليموس فيلادلفوس ، حيث عدد مجموعة من الأسر الملكية يرجع أولها إلى ما قبل المدة المفروضة عادة للطوفان ، وتمتد دون انقطاع حتى في خلال الطوفان . وهناك تاريخ أقدم كتب قبل حكم بطليموس يذكر وجود ملوك مصريين « على مدى ٣٦٥٢٥ عام إلى ما كتانب الذى اغتصب منه العرش أوخوس ملك الفرس ، قبل الاسكندر الأكبر بتسعة عشر عاماً (١) » .

وبالمثل ادعى الصينيون — الفلكيون العلماء أصحاب التواريخ الدقيقة والتقاويم — الوجود منذ أمد طويل ، حتى إننا لو صدقنا أقوالهم لوجدنا هؤلاء السفهاء قد سبقوا الزمن الذى خلق الله فيه النور ! كان آدم يبدو مثل قادم متأخر ، بجانب أمراء الصين الأولين . « . . . يدعى يام — كوام — سيم أنه منذ بدء الخليقة حتى الامبراطور تينسكى الذى تولى الحكم في عام ١٦٢٠ ،

(١) الأب بول بيزرون Le P. Paul Pezron, *L'antiquité des temps rétablie*, 1687, chap. XV

قد انقضى زمن لا يقل عن تسعة عشر مليوناً وثلاثمائة وتسعة وسبعين ألفاً وستة وتسعين عاماً (١) » .

كانت مسألة خطيرة للضمائر ، مسألة عويصة تدرسها كل دوائر العلم فى كل أنحاء أوربا بغية إيجاد حل لها فى عناء وأناة . وفى عام ١٦٧٢ ظن عالم انجليزى هو جون مارشام أنه قد وجد الحل : صحيح أنه كان للمصريين ثلاثون أسرة ملكية لو وضعناها على التوالى لزادت عن عمر الدنيا : غير أننا يجب ألا نضعها على التوالى لأنها ليست أسراً متتابعة بل أسراً تجمع بينها القرابة ، تحكم فى آن واحد فى نواح مختلفة لدولة واحدة . . . وفى عام ١٦٨٧ عرض الأب بول بيزرون حلا آخر : إنه يعترف بأن أربعة آلاف عام لا تفسح مجالا كافياً لتاريخ قدماء المصريين . ولكن هذه المدة هى التى يحددها التفسير العبرى للعهد القديم . فلنتبع التفسير اليونانى المعروف باسم (السبعين) (٢) ، فانه يتيح لنا قرابة خمسمائة وخمسة آلاف عام وهذه الخمسة عشر قرناً الاضافية تهيئ فسحة ويسراً للأسر والتواريخ . لقد انتصر الأب بيزرون ، لكنه لم يتمتع طويلا بنصره ، فان علماء التاريخ رأوا عدم كفاية هذه المدة الاضافية ، ومن جهة أخرى وجد رجال الكنيسة أنه إجتراء أن نفاضل بين التفاسير المختلفة للكتاب المقدس لحساب المصريين والصينيين ، وأفهموا الأب بيزرون أنه ينزلق من علم التاريخ إلى هوة الالحاد . وتبادل الطرفان البحوث والمناقشات فى لسان ينبو عن الآداب . وأعلن الأب أستورينى فى إيطاليا تخميناً أيده فيه الأب ثورنمين عام ١٧٠٣ إذ قال : جرت العادة على أننا إذا ذكرنا تاريخاً ، وليكن عام ١٦٠٠ ، وأردنا أن نذكر بعده تاريخاً آخر قريباً ، فاننا لا نذكر الرقم كله بل نقول : فى عام ١٦٠٠ حدث كذا وفى عام ٦١٠ حدث كيت . . . ولعل الأمر قد جرى عند اليهود على ذلك المنوال ، ولما كنا لا ندرك عادتهم ، ولأننا نعتمد على حرفية عباراتهم ، فقد اختصرنا هكذا من التاريخ بضعة آلاف من السنين . . . ولكن كيف نثبت

---

(١) الأب جرسلون : «تاريخ الصين تحت حكم التتار» ١٦٧١ القسم الأول الفصل ١٩ ص ٤٢ . Le P. Greslon

(٢) Septante تفسير يونانى للعهد القديم . أقدم وأشهر تفسير قام به ٧٢ يهوديا من مصر بأمر بطليموس فيلادلفوس فى ٢٨٢ ق.م. [المترجمان]

أن هذه العادة « الايطالية المصدر » فى التعداد والحساب كانت مستعملة لدى العبريين؟ على كل حال هذا الحل لا يؤدى إلا إلى استبدال التباس بالتباس . . .

وقد تولد عن هذا الارتباك ارتباك آخر لا يقل عنه قسوة . فلنصغ إلى بوسويه : «لما خلص الله شعبه من ظلم المصريين وقاده إلى الأرض التى أرادهم ليعبدوه فيها ، عرض عليهم قبل أن يثبت أقدامهم هناك ، الشريعة التى ينبغى عليهم أن يتبعوها . فكتب بيده تعالى على لوحتين أعطاهما لموسى على قمة جبل سينا أساس هذه الشريعة ، أعنى الوصايا العشر التى تتضمن المبادى الأولى للدين وللمجتمع الانسانى . وأملى على موسى قواعد أخرى . . . »

ولكن فكرة ساورت بعض الأذهان : فاذا كان المصريون يملكون العراقة الأصيلة والحكمة العميقة ، وإذا كان العبريون قد عاشوا زمناً طويلا تحت حكم المصريين ، فانه من المنطق بل من الضرورة أن هناك مدنية مزدهرة كبيرة قد أثرت فى مدنية بسيطة صغيرة ، إذن فالمصريون قد أثروا فى العبريين . تلك هى النظرية التى دافع عنها أولا جون مارشام ، ثم جون سبنسر رئيس المجلس المسيحى بكامبريدج عام ١٦٨٥ . وينسب كلاهما للمصريين الذين يعجب بهم تأثيراً قاطعاً على القانون والنظم والعادات الدينية : فالختان والعمادة والمعابد والرهبنة والقربان والمراسيم الدينية ، كلها مأخوذة عن المصريين . وحينما صنع موسى ، لانقاذ شعبه من الحيات ، حية من نحاس(١) تشفى كل من نظر إليها ، فما كان ذلك معجزة بل كان نقلا عن سحر مصرى قديم . إذن لقد ورث الشعب المختار معتقداته الأساسية من شعب وثنى . إذن لم يملِ الله وصايا على أحد على جبل سينا ، إذن لم يفعل موسى إلا أن نقل عن أساتذته المصريين .

أراد الأب الطيب هويه أسقف أفرانش ، ذلك المشغوف بالعلم ، الذى يروى عنه أنه ملأ منزله بالكتب حتى انهدم على رأسه ذات يوم — أراد بين مطالعاته الطويلة أن يصل إلى قصد صالح : أن يرد لموسى مكانه الحق ، مكان الصدارة . لقد أخذ على عاتقه تبيان أن ديانة الوثنيين تصدر عن أفعال موسى

---

(١) فقال الرب لموسى اصنع لك حية محرقة وضعها على راية فكل من لدغ ونظر اليها يحيا . فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على راية فكان متى لدغت حية انسانا ونظر إلى حية النحاس يحيا .

(العهد القديم ، عدد ، الاصحاح الحادى والعشرون ، ٩) . [المترجمان]

وعن كتب موسى ؛ وأن آلهة الفينيقيين والفرس والمصريين ، والجرمان والروسان والغال والبريتان ، مصدرها كلها موسى ؛ وأنها ليست غير تحويرات أخذت عن موسى . ذلك هو ما ذكره فى كتابه *Demonstratio Evangelica* فى عام ١٦٧٢ وفى كتابه . . . *Quaestiones alnetanae de concordia rationis et fidei* «مسائل تخص الاتصال بين العقل والدين» فى عام ١٦٩٠ : إلا أنه لم يدر بخلده أن الحجة يمكن أن تنقلب ضده من أيسر طريق : إذا كان هناك أوجه شبه بين العقيدتين الموسوية والوثنية ، فهل موسى هو الذى أوحى بها إلى الشعوب الأخرى ، أم أن الشعوب الأقدم قد أورثت موسى عاداتها ؟ يا للأب هويه من مسكين ! فها هو ذا يجره نجاح كتابه إلى زمرة الملحدين ! يقول لويس راسين فى رفق « لم يوافق أبى على ما كان يريده هذا العالم من استخدام علمه اللادينى الواسع فى صالح الدين » . أما أنطوان أرنو فيقول فى قسوة « إنه لمن الصعوبة بمكان أن يؤلف الانسان كتاباً أحفل بالالحاد من ذلك الكتاب ، كتاباً يستطيع أن يقنع شباب المتحررين بأنه لا غنى عن الدين وأن الأديان كلها صالحة وأنه حتى الوثنية يمكن أن تكون موضع مقارنة بالمسيحية » .

وبعد ، فهذا ما آلت إليه خير النوايا البشرية ، أخذ الناس ينتقلون من مشكلة ليقعوا فى مشكلة ، ومن ارتياب ليقعوا فى ارتياب . وقد كان ذلك الوقت فصلا أليماً من التنازع الذى وضع العلم فى مواجهة الايمان ؛ تنازع امتد من جيل إلى جيل واتخذ فى كل منها لوناً خاصاً . فلنصغ إلى الأب رينودو الذى ناقش عام ١٧٠٢ كتاب جون مارشام أمام مجمع التاريخ فهو يقدره تقديراً لا يخلو من قلق : « إنه مؤلف كامل من حيث النظام والنهج والوضوح والايجاز وسعة العلم . غير أنه يصعب أن نغتفر للمؤلف أنه ، بدافع من ميله إلى المصريين أو لسبب آخر ، قد أضعف كل ما من شأنه أن يعزز قدم الكتاب المقدس وجلاله ، حتى إنه قد هيأ للعقول المتحررة من أسباب الارتياب أكثر مما هيأ كثيرون ممن هاجموا الدين هجوماً صريحاً » .

وتبلبلت الأفكار . صحيح أن الناس كانوا يستطيعون أن يلوذوا بالحصن يدفعون أسباب علماء التاريخ ، قائلين إن أولئك الكلدانيين والبابليين الذين يطالبون بعشرات الآلاف من السنين لارضاء مطامعهم لم يكونوا إلا كاذبين . وقال القديس أوغسطين آخر كلمة فى الموضوع : إذا ذكر المؤرخون

اللادينيون ما يناقض التاريخ المسجل فى العهد القديم ، فلنعدهم مخطئين .

ولكن أولئك المجاهدين لا يكادون يعرضون أنفسهم خارج الحصن حتى يلاقوا فى طريقهم أخطر الغاسرات لعجز وسائل دفاعهم أمام أسلحة ماضية لم يكن الأبولوجيون(١) قد أتلموها بعد . إن أرقاماً تدير الرءوس ما فتئت تحتل الأذهان : ثلاثة وعشرون ألف ، أربعون ألف ، مائة ألف ، سبعون ومائة ألف عام ! أكان ينبغى أن يحذوا حذو الأب ألطونيو فورستى الذى اختار تواريخ بذاتها لا لأنها حقيقية بل لأن فيها راحة ويسراً ؟ لقد وجد نظريتين متطرفتين تزعم إحداهما أن الخليقة بدأت منذ ٦٩٨٤ عاماً وتزعم الأخرى أنها بدأت منذ ٣٧٤٠ عاماً وعدد بينهما سبعين رأياً : وهو لا يستطيع أن يقبلها كلها ، وهو لا يستطيع أن يمحصها بأجمعها : لكن ينبغى أن يتخذ قراره من أجل أسباب عملية لا صلة لها بالعلم . . . ولأجل هذه الأسباب بعينها فاضل فورستى بين المؤلفين : ولكن المؤلفين جميعهم متناقضون ، ترى أيهم المخطئ وأيهم المصيب؟ لا يمكن تفضيل واحد دون استبعاد الآخرين ومع ذلك فلا مندوحة عن البت فى الأمر .

وإذا نحن لم نحذ حذو فورستى فليس أمامنا إلا أن نتبع حكمة بريزيوس الذى كان قد خطب فى ليدن أمام الطلبة يدفع الارتياب المغير . وبعد مر تسعة أعوام من خطبته الافتتاحية قال كلمته فى معركة علم التاريخ وبحكمته التى أضاف إليها شيئاً من الاستدراك . قال : إن هدم البراهين السالفة شئ سهل يسير ، أما البناء من جديد فذلك هو الصعب العسير ، فنحن لا نستطيع استخلاص شئ أكيد حتى لدى المصريين : فأقصى ما نستطيع عمله هو التوفيق بين أحداث الشعوب القديمة المختلفة حتى تتجانس . هكذا كان بريزيوس يجتهد لينقذ ما يمكن إنقاذه من حطام كبير .

ما مصير حقائق الماضى إذاً ؟ تلك النظريات البسيطة العظيمة ؟ تلك التوكيدات الهادئة ؟ ذلك الاعتقاد بالتواريخ الثابتة التى لا تتزعزع ؟ كيف يستطيع المرء أن يتعرف إرادة المشيئة الالهية فيما لا يبدو إلا مبهما مهوشاً ؟ وكيف نعترف بقيمة الوقائع فى ميدان المعرفة بينما الوقائع تبدو كأنما تفلت

---

(١) Apologétique : علم الدفاع عن صحة الدين المسيحى . [المترجمان]

من قبضتنا ؟ كان المحدثون يبطلون دفعة واحدة التاريخ والعناية الالهية والمراجع .

لقد أصبح الموضوع شديد الاقلاق . ماذا ؟ أكلما ازداد البحث كلما قل التحصيل ؟ كان الزمن غارقاً فى ضباب ولم تكن الجهود التى تبذل ابتغاء انقشاعه تزيده إلا كثافة . يقول بول بيزرون(١) « إن الزمن الذى يتلف كل شئ ، ويبدو كأنه يروم تغليف كل شئ بالنسيان الأبدى ، قد حرم الانسان أو كاد ، من معرفة تاريخه وقدمه . ذلك صحيح ، حتى إنه بعد كل ما بذل من عناية لمعرفة مداه وكم قرناً مضى منذ بدء الخليقة حتى مجئ المسيح لم تصل إلى الحقيقة أبداً ، بل بعدنا عنها كثيراً . . . »

إلا أنه بالرغم من ذلك كانت هناك طريقة أخرى للتأريخ : العلم الواسع الغزير . كان جمهرة من العلماء يشتغلون ، جادين فى عمل مضن غير مثمر ، فى نشر النصوص وكشف الوثائق وحل رموز الحجارة « وحك » المسكوكات . جمهرة صغيرة تعمل فى غيرة وإقدام . قرية من النمل لها عمالها ومحاربوها . عمال مجيدون يعشقون العمل المضنى ، ويبحثون عن الحقائق الأكيدة كبيرة كانت أو صغيرة . وينقبون عن مواد قوية تبقى إلى الأبد ، بغير تفسير سطحى سريع ، ولا حكم باطل مبتسر ، ولا افتنان أو تحوير .

أولئك كانوا : فرانشيسكو بيانكينى الذى بحث فى الآثار القديمة عن معارف وثيقة لم يجدها فى النصوص ، وريتشارد بنتلى أستاذ جامعة ترينتى وأمين المكتبة الملكية وأستاذ العلوم الكلاسيكية والذى وهب ذهناً قوياً ليس له نظير ، وبوفندورف الذى كان يعرف تمام المعرفة قيمة جعبة الأوراق القديمة ، وليبنتز .

وكان ليبنتز ينعزل فى المكاتب ، حيث يبحث عن مخطوطات قديمة ينقلها بخط يده ، وعن أوامر ملكية وتقارير دبلوماسية . وكان يرى أن قانون العلاقات الدولية يجب أن يستند على العقود الرسمية وإعلانات الحرب ، وعقود الصلح وغير ذلك من الوثائق ، لا على الكلمات فحسب . وعندما كان أميناً لمكتبة الدوق دى برانسويك ، شرع فى تأليف تاريخ الأسرة الملكية الحاكمة ، وبعد

---

(١) فى كتابه *L'antiquité des temps rétablie* ، ١٦٨٧ ، ص ٨ .

مدة طويلة نشر كتاباً ضخماً ، أتبعه بكتب أخرى ، وقد حشدها بالمستندات الصحيحة المصادر ، وإن لم تعجب ذوق الناس فى ذلك الحين . ولم يخف على الذين يتعجبون لعمله هذا ، أنه عمل عملا أفيد بكثير من البيانات الطويلة البليغة . وقد أضاء بنور جديد ، قروناً كان يكتنفها ظلام مخيف . وأزال عديدا من الشكوك وأصلح كثيراً من الأخطاء .

أنظر كيف يعملون فى كل البلاد ! ها هو ذا هنرى سيبوم يعنى بالقاء النور على الآثار الجرمانية القديمة . وتوماس جيل وتوماس ريمر يهتمان بالوثائق الانجليزية . ونيكولا أنطونيو يعنى بمصادر التاريخ الأدبى الاسبانى . أنظر كيف يعملون فى المعامل العلمية الواسعة التى أنشأها اليسوعيون ! وكيف يعمل البندكتيون(١) الرهبان الذين يشتهرون بالصبر والدأب المتواصل حتى عاب عليهم رانسيه أنهم يخصصون للعلوم وقتاً ومحبة كان ينبغى أن يخصصوها لله ! فرد مابيلون على هذا التحرش وبذا نشب نزاع طويل ونبيل ، كان محوره الخير الأسمى .

ومن جهة أخرى يعمل بعض « البندكتيين » المدنيين ، منهم إيتان بالوز وشارل دى كانج — الذين ظفر العلم بفضلهم بجانب من أروع انتصاراته . فلنذكر أنه فى عام ١٦٧٨ نشر دى كانج Du Cange قاموسه اللاتينى *Glossarium mediae et infimae latinitatis* ، وفى عام ١٦٨١ نشر (مابيلون) Mabillon كتابه عن السياسة *De re diplomatica libri V* ، وفى عام ١٧٠٨ نشر (مونفوكون) كتابه *Paleographica graeca* . ولكن إذا كان علينا أن نذكر مثالا فريداً لهؤلاء العلماء فلعلنا نختار (أنطونيو موراتورى) Antonio Muratori الذى كرس حياته لانقاذ وثائق الانسانية من النسيان . كان يقبر نفسه طوال النهار بمكتبته التى لا يغادرها أبداً إلا للقيام ببحث علمى فى السجلات الايطالية ؛ وكتب مجلدات ضخمة جعل منها أكداساً مكدسة خلال ما ينيف على نصف قرن .

---

(١) Bénédictins : شيعة القديس بنوادى نورسى (٥٢٩) . رهبان يمتازون بالعلم والاجتهاد والتواضع ، وقد قاموا بخدمات كبيرة للعلم والأدب وعلى الأخص فى القرون الوسطى . وهم الذين نقلوا روائع الأدب اليونانى والرومانى فكانت الانسانية مدينة لهم بهذا الفضل وصار اسم بنديكتان علماً على سعة العلم والاجتهاد . [المترجمان]

إن مؤلفاته الأدبية والفلسفية والجدلية التى تكفى لتمجيد أى مؤلف آخر ، لم تكن إلا ما كتب فى أوقات فراغه ، فبوساطتها كان يرتاح من عمل مضن قام به فى عناد : جمع كل ما يمكن من وثائق عن إيطاليا وعلى الأخص عن القرون الوسطى التى يجهل الناس كل شئ عنها ، ثم ابتعاث عشرة قرون .

لعل انجلترا كانت تؤثر الاهتمام بدراسة العلوم اليونانية ، أما هولاندا فتعنى بالعلوم اللاتينية ، بينما تفضل فرنسا تاريخ الكنيسة والعلوم الدينية ، وتهتم إيطاليا بتاريخها وماضيها . ولم يكن يفصل الجميع حاجز أو جدار بل كانوا يشتغلون فى كل البلاد . وحينما تتكون آخر الأمر ثروة علمية وافرة ، ويمتد البحث عن آثار المدنيات الزائلة حتى أعماق الأرض ، بفضل علوم جديدة كعلم المسكوكات القديمة ، ويصلح العقول درس الصبر والتواضع ، وليد هذه الجهود ؛ حينئذ سيهزم الشك التاريخى ويهدم .

ولكن متى ينجز هذا العمل ؟ ترى كم من سنين بل كم من قرون لا زالت تلزم لكى يعرف الانسان بغير تخمين ، ولكى يؤكد بدون كذب أو تزييف ؟ إنه لمجلبة لليأس والقنوط ألا يجد المرء إلا بضعة أحجار من هذه الفسيفساء الهائلة ، والتى لا يكاد الباحثون يبدأون فى جمعها حتى ينتقلوا إلى عالم الأموات ؛ إذ يقهرهم ماض لا يغلب ، ويدفنهم بدورهم . ولو افترضنا أنهم أفلحوا فى هذا البعث الاعجازى ، فان الناس لا يتقبلون ما يبتعثه لهم الباحثون من عناصر الحياة التى ينبغى عليهم أن يستعملوها ليردوا للأشياء الزائلة أشكالها وألوانها . ومرد ذلك فى الواقع إلى أن العلماء والمؤرخين فى ذاك الوقت كانوا يعملون جنباً إلى جنب دون أن يعرف بعضهم بعضاً وكانت مناهجهم تختلف اختلافاً بيناً ؛ ولقد ظهر جيل جديد يصبو إلى الراحة ويميل إلى التطير وإلى عدم التعمق ، ولا يحب إلا السهل اليسير ، فمن جهة نجد « عمالا » لا يهتمون بالأسلوب ، يملئون هوامش مؤلفاتهم بالبيانات والأسانيد ، ويثقلون ويطيلون فى غير وضوح ، مسلمين أنفسهم باختيارهم إلى أعمال مضنية لا ثمرة فيها ولا طائل وراءها . ومن جهة أخرى نجد المؤرخين ، العباقرة العظماء يأنفون النزول من عليائهم إلى تلك التوافه البسيطة . ويتركون الأبحاث التفصيلية للعقول المتوسطة ، متجنبين المناقشات التى قد تخمد الشعلة التى تذكى عقولهم : فكأن العبيد يجمعون المواد التى يحتقرها نبلاء الأدب العظام .

ويعد ، فما هو التاريخ ؟ هو أولا مجموعة من القصص حين تسرد أصول الشعوب ، وهو ثانياً كتلة من الأخطاء . وإنك لتلاحظ لدى فونتنل Fontenelle الذى يعد مثال الارتياب ، شيئاً من الحزن وبعضاً من اليأس إذ يقول :

« ما أبطأ وصول الناس إلى شئ معقول ، مهما كان بسيطاً ! إن الاحتفاظ بذكرى الوقائع كما كانت فى الأصل ليس آية من الآيات ؛ وبالرغم من ذلك فسوف تمر قرون عديدة قبل أن نكون أهلا لذلك ؛ وحتى هذا الحين ، فلن تكون الوقائع التى نتذكرها إلا أوهاماً وخرافات . »

« لقد عودونا فى طفولتنا على الأساطير اليونانية ، حتى إذا وصلنا إلى سن العقل والتفكير لا نجدها من الغرابة كما هى فى الواقع . ولكن إذا نظرنا بعين غير عين العادة ، فلن يسعنا إلا أن ندهش لرؤية كل هذا التاريخ اليونانى القديم ، الذى لا يعدو أن يكون كتلة من خيال وأحلام وخرافات . كيف كان ممكناً أن يقدسوا لنا كل ذلك كشئ حقيقى ؟ وترى لأى قصد كانوا يخدعوننا ؟ وفيم كان حب الناس لأشياء ظاهرة البهتان ، واضحة الخرافة والبطلان ؟ ولماذا لا تستطيع البقاء والاستمرار ؟ »

وقد تلا هذا المنهج فى كتابة التاريخ ، منهج آخر ، هو الذى ساد فى الشعوب المتمدنة المهذبة : البحث فى علل الأفعال وفى الأخلاق : ولا يقل هذا المنهج خطأ عن الأول . لأنه ، لا ريب فى أن الانسان غير مندفع ، سريع التصديق ، ناقص المعرفة أو عديم الاكتراث ؛ « يجب أن نجد رجلا قد شاهد كل شئ خالياً من كل غرض ، متوفراً على البحث » . وهذا محال . فالغالب أن يرتب المؤرخ نظرية وضع أسسها ومبادئها من قبل ، تتكون من وحدة محكمة الاتصال ، كما يفعل الميتافيزيقيون ؛ فلديه بعض الوقائع التى يتخيل أسبابها ؛ فعمله غير مؤكد ، لا يقين فيه ، ولا يقدم ضماناً أكثر مما تقدمه أى نظرية فلسفية . إذاً فقد يكون التاريخ الوحيد المفيد حسبان الأخطاء وتعديد أهواء الانسانية :

« إننا مجانين ولو أننا لا نشبه تماماً نزلاء المستشفيات العقلية . فان أحداً منهم لا يهتم بمعرفة جنون جاره ، ولا يعنيه من سكن غرفته من قبل ، ولكن يهمنا نحن جداً أن نعرف ذلك . لأن عقل الانسان يقل احتمال وقوعه فى الخطأ متى عرف حدود خطئه وبكم طريقة يمكنه أن يخطئ ، ولن يستطيع أبداً أن يدرس تاريخ أخطاء الانسان دراسة كافية » .

ذلك كل ما يستطيع التاريخ أن يؤدى إليه ، على حسب قول هذا الرجل الحديث ، بطل المحدثين فى « المعركة الكبرى »(١) . فليهتم الحاضر بالحاضر ! إننا نقضى سنين عديدة فى المدارس لنلقن شبابنا ما يقوله مؤرخو روما : كم كان أفضل أن يدرسوا الوقت الذى سيعيشون فيه ! فنحن لسنا ندرك آخر الأمر أى ضوء يمكن أن نكتسبه من مؤلفات كورنيليوس نيبوس C. Nepos أو كنت كورس Quinte-Curce أو تيت ـ ليف Tite-Live ، لنستنير به فى الوقت الحاضر ؛ حتى لو فرضنا جدلا أن نحفظ عن ظهر قلب كل ما تتضمنه تلك الكتب ، حتى لو قمنا بعمل جدول دقيق لكل ما فيها من تعابير وأحكام وأمثال ، لا جدوى من أن نعرف بالضبط عدد البقر والأغنام التى نقلها الرومان معهم عندما انتصروا على الأكيكولنس Equi culans والهرنيسان Herniciens والفولك Volsques (٢) . إنه الحاضر ، إنها الحياة ، إنه المستقبل ينادى ويستهوى ويسحر Ratis vicit, vetustas cessit .

---

(١) المعركة بين القدماء والمحدثين : خلاف مشهور وقع بين أدباء القرن السابع عشر ، موضوعه تفوق الأدباء المحدثين على القدماء ، فى الأنواع الأدبية الكبيرة ، اشترك فيه جوالون وراسين ولابروبير فى جانب القدماء بينما كان شارل بيرو وفونتنل يدافعان عن المحدثين . [المترجمان]

(٢) S. Von Pufendorf, *Einleitung zu der Historie der vornehmsten Reiche und Staaten ... an Europa*, 1682. Préface نبذة تاريخية عن نظام الحكم فى الرايخ وأنظمة الحكم الأخرى فى الدول الأوروبية .

أنظر أيضاً مالبرانش ، « البحث عن الحقيقة » ، ١٦٧٤ Malebranche, *De la Recherche de la vérité*, 1674. الكتاب الثانى ، الفصل الرابع والخامس والسادس .

الفصل الثالث

من الجنوب إلى الشمال

كانت أوربا تبدو كأنها قد اكتملت : فلكل شعب من شعوبها صفات معروفة ، معينة ، فلا يكاد المرء يلفظ اسم شعب ، حتى تنبثق مجموعة من الأوصاف تخصه وحده ، كقولنا إن الثلج أبيض وإن الشمس محرقة . السويسريون ؟ — إنهم مخلصون عقلاء أمناء ، بسطاء الأخلاق أصفياء القلوب ، وهم شجعان ذوو عزم وإرادة ، لا يكاد العدو يهاجمهم حتى يبادروا إلى رد هجومه ، يتميزون بالثبات والبسالة والصدق وروعة القوام ، يصلحون للجندية حتى إن عدداً كبيراً منهم يخدم فى أرض فرنسا ، ولكنهم يتطلبون جزالة الأجور : فلا جنود إذا غابت النقود . — الألمان ؟ إنهم سولعون بالحرب ، وهم جنود أفذاذ متى عرفوا النظام ، يميلون إلى التجارة ويجيدون كل أنواع الصناعة . لا يستهويهم العصيان بل يتمسكون بنوع الحكم الذى اعتادوه . إنهم يكونون كتلة ضخمة ، ولكن للأسف تشغلهم انقسامات عديدة ، دينية وسياسية . . . وقد قال تيكولا دى فير مدرس الجغرافيا لولى العهد فى عام ١٧٠٨ : — « إن البولانديين بواسل ، يحبون الآداب والفنون ، ويميلون بعض الميل إلى الفسق والفجور ، وكلهم كاثوليك ! — والمجريون يتميزون بقوام ممشوق ، يحبون الحرب والخيل ؛ فى خلقهم جرأة وشراسة ، ويفرطون فى الشراب . خاصتهم رائعون ، ونساؤهم جميلات فاضلات — والسويديون قوم شرفاء شجعان ، مشغوفون بالعلوم والفنون . والجو هناك بارد صحى صاف . والغابات مليئة بالحيوانات المفترسة . — والدنمركيون لا تختلف أخلاقهم كثيراً عن السويديين — أما النرويجيون فيبدون أكثر بساطة ، وأوفر صراحة » .

عندما كان الأدباء يبحثون عن شخصية مجهزة ، كانت تلك الجنسيات المفسرة تقدم لهم قائمة ميسرة . فمن كان يبتغى تأليف مسرحية راقصة (باليه)،

أو مسلاة لرجال البلاط ، كان يقدم دون أن يرهق فكره ، دوراً للأجانب مثل النابوليتان أو الاسكلافون . فى عام ١٦٩٧ ألف (هودار دى لاموت) Houdar de la Motte مسرحية راقصة مثلت فى مجمع الموسيقا الملكى اسمها «أوربا الأنيقة» L'Europe Galante : « لقد اخترنا من بين شعوب أوربا أشدها تبايناً فى الخلق ، الأمر الذى يدخل على التمثيل ظرفاً وتشويقاً : فرنسا ، إسبانيا ، إيطاليا ، وتركيا . ولقد تبعنا الأفكار العامة فيما يخص الصفات المميزة لتلك الشعوب . فالفرنسى طائش ، متظرف ، عربيد . والاسبانى صادق ، مندفع ، خيالى . والايطالى غيور ، حاد المزاج . وأخيراً فقد مثلنا بقدر ما يسمح المسرح عظمة السلاطين ، وانفعال السلطانات » .

فلنتناول هذه الصور ولنبرز معالمها ، وسنرى هذه الصفات الباهتة تستحيل إلى شتائم ، دون تغيير يعترى الأصول . فى عام ١٧٠٠ كتب دانيل دى فو Daniel de Foe (١) نبذة سياسية كان لها ضجيج ، ووجدت فيها كل دولة إطراء : *The true-born Englishman* قال فيها :

Pride, the First Peer, and President of Hell,
To his share Spain, the largest province fell . . .
Lust chose the torrid zone of Italy,
Where Blood ferments in Rapes and Sodomy . . .
Drunkness, the darling favourite of Hell,
Chose Germany to rule . . .
Ungouver'nd Passion settled first in France,
Where mankind lives in haste, and thrives by chance.
A dancing nation, fickle and untrue . . . (٢)

---

(١) مؤلف روبنسون كروزو . [المترجمان]

(٢) الكبر كبير الشيوخ ، زعيم الجحيم ،
وقعت فى نصيبه أكبر ولاية ، بلاد الاسبان ...
والشهوة اختارت ايطاليا أرض الدفء والحنان ،
حيث يهتاج الدم بين الاغتصاب والفساد ...
والسكر العزيز الأثير لدى الجحيم ،
اختار أن يحكم بلاد الألمان ...
واستقرت فى فرنسا الشهوات طليقة العنان ،
حيث يعيش الانسان فى عجلة ويتقدم بالمصادفة .
شعب راقص هوائى حياته خداع وبهتان ...

ولطالما تقابل كل أولئك الاخوان الألداء ، ولكم تصادموا ، ولكم تصالحوا وتحالفوا وتعانقوا ، وعاشوا جنباً لجنب أمداً طويلا فى البؤس والآلام ، حتى ظنوا أن تعارفهم أصبح وطيد الأركان ، وأن الفكرة التى كونها كل منهم عن الآخر لن يعتريها تغيير — يا له من خطأ ! ففى سماء الغرب تخبو نجوم وتنطفئ وتظهر نجوم وتأتلق . لم يعد النور يشع من مركز واحد . ولم يعد التغيير يقتصر على الحدود التى تتحرك إثر الحروب المستمرة فحسب ، بل تناول القوى الفكرية التى تتكون منها أوربا ، وإدارة روحها الجماعية : ولم يتم ذلك دون كفاح ، ودون آلام ، ودون ثورة جديدة .

***

كانت السيادة الفكرية تبدو دائماً كميراث موقوف على اللاتين . فقد حملت لواءها إيطاليا فى عصر النهضة ؛ ثم رأت اسبانيا عصرها الذهبى ؛ وأخيراً أقبلت فرنسا تتلقى الميراث . وربما كان التفكير فى أن برابرة الشمال يستطيعون منافسة هاته الملكات يبدو تفكيراً وقحاً مضحكاً ؛ فماذا كان فى وسعهم أن يقدموا ؟ شكسبير فلتة الطبيعة ؟ أم شعراء ألمانيا القوط الغلاظ ؟ أولئك الناس ما كان يحسب لهم حساب . وكانت إيطاليا و إسبانيا وفرنسا فى نزاع ، متصل الحلقات ، تدعى كل منها الحق المطلق فى تراث الرومان .

إلا أن اسبانيا انطفأ بريقها . ومع أنها ما فتئت تضئ أوربا ببعض أشعتها الأزلية ، فانها مهمة شاقة على أى شعب أن يحتفظ بمكانه فى الصدارة ؛ إذ ينبغى ألا يعتريه ضعف أو كلال ، وينبغى أن يجدد مجده وأن يشعر به الخارج . والحق أن أسبانيا لم تعد بعد تعيش فى الحاضر ؛ فالسنوات الثلاثون الأخيرة من القرن السابع عشر وبالمثل السنوات الثلاثون الأولى من القرن الثامن عشر تكاد تكون فارغة ؛ وكما يقول (أورتيجا . ى . جاسيه) Ortega y Gasset « لم يخفق قلبها طوال تاريخها الفكرى بمثل ذلك البطء الذى كان يخفق به حينذاك » . كانت تنطوى على نفسها وتستلقى فاقدة الشعور ، فى زهو وجلال . وما فتئ يزورها الرواد ولكنهم لم يكونوا يخفون أمارات الاستخفاف ؛ منتقدين عيوب شعب يؤمن بالخرافات ، ومثالب بلاط جاهل ، ومتحدثين عما تلاقى تجارتها من كساد ، وساخرين من كسل السكان وما هم عليه من خيلاء ؛

وفيما يتعلق بآدابها ، كانت مضرب المثل بأسلوب كله تعاظم واصطناع ، ومسرحيات تخالف القواعد ، مسرحيات كانت فضيحة فى نظر الخبراء . وبدأ الناس يقولون إن إسبانيا لم تفقد قوتها ونفوذها فحسب ، بل إنها كانت غير أمينة على عبقريتها : روحها الخيالى وعظمتها وشرفها وحبها للعدل وتجردها عن الأغراض ، كل هذه المزايا التى اختصت بها . ولقد سخر منها سرفانتس Cervantes فى رواية دون كيشوت Don Quichotte ؛ و بما أن الاسبان قد أيدوا سرفانتس بالتصفيق والتهليل ، فانهم فضحوا عيوبهم . ولعل هذه فكرة سخيفة ، ولكنها تكفى لكى تكون الشعوب المنافسة حكماً قاطعاً عن جارها الضعيف .

وكانت إيطاليا لا تزال تختلج فيها علائم الحياة ، وتمتاز أيضاً بالمرونة ، أى القدرة على تغيير لون إنتاجها ، فتبحث فى ميادين أخرى ، فى العلم ، عن شهرة لم تعد تجدها بعد فى الأدب . وكانت قد أثرت فى الخارج عن طريق ذكرى روما : وهى لم تكف يوماً طوال حياتها عن التذرع بهذه الذكرى التى وضعت فيها كل آمالها . كانت تؤثر بلسانها الرقيق الرنان ، لسان الموسيقا ولغة الغرام . كانت تؤثر عن طريق أبنائها الذين برعوا فى الرقص والموسيقا والغناء : فقد كانت أو براتها تفتن العالم المتمدن وتسلب الألباب ؛ كانت تؤثر فى الشرق أكثر مما تؤثر فى الغرب ، على شواطئ دلماشيا ، فى النمسا وفى بولاندا . ولم تكن هذه مميزات قليلة . ولكن أتى زمن يريد فيه الناس التفكير : وهو ما عجزت إيطاليا عن المشاركة فيه . إنها كانت تنحدر إلى الزوال . وما أكثر السياح الذين ما برحوا يزورونها ! لنقتصر على ذكر المشهورين : جلبرت بيرنت Gilbert Burnet ، ميسون Misson اللاجئ الهوجونوتى الذى صحب أحد النبلاء فى دورته الكبرى ، وليام بروملى Willam Bromley ، مونفوكون Montfaucon ، وزميله دون بريوا Dom Briois ، وأديسون Addison . نحن لا نستخلص من مذكراتهم ورواياتهم ورسائلهم إلا إعجاباً مستمراً بكل ما هو قديم ، واستخفافاً بكل ما هو حى حديث ، وسقوطاً سياسياً وانهياراً خلقياً وفكرياً فى إيطاليا التى أضحت فى نظرهم أرض البرتقال والأطلال ، أرض الأموات .

وهنا أتى دور فرنسا . إنها تدير السياسة الأوربية خلال مدة لا تقل عن أربعين عاماً ؛ والأصدقاء والأعداء يذكرون — كما قال هوراس والبول Horace Walpole — « التقدم العجيب الذى حققه نفوذها منذ معاهدة مونستر فى عام

١٦٤٨ حتى الثورة الانجليزية وبداية « الحلف الكبير » فى عام ١٦٨٩ » ؛ إن هذا الصعود وهذه العظمة ، وهذا المجد ، لدليل على حيوية دافقة . إن فرنسا شخصية معنوية ؛ فرغبتها فى الوحدة ورغبتها فى التوسع تتتابعان بفضل منطق يزداد اتضاحاً على مر الأيام . وعندما توحدت ، لم ينطفئ نشاطها بل انتظم ، وصارت على استعداد لأن تستعمل فى الخارج قوة تستقيم مدة طويلة . وإن ملك فرنسا لشديد الميل إلى الحركة وإلى الاشعاع ؛ وسيكون الضوء ، بل الشمس ؛ فقد كون مجموعة شمسية مركزها فرساى ، ويريد أن تكون شعوب أوربا كواكب لها : «إنه يمثل مجهوداً مرتباً منسقاً ، لخلق جمال نظام فكرى للعالم (١) » .

وفرنسا وفيرة السكان ، غزيرة المدن والقرى ، محاربة ، فيها طبقة نبيلة على استعداد دائم لحمل السلاح ؛ فى سكانها مرح ورشاقة وظرف ، يمتازون بحذق ونشاط ، يستطيعون النهوض بكل مشروع ، ولا سيما ما يتطلب الذكاء أكثر من التوفر والاعتناء ؛ ومع ذلك ففيهم الخفة وعدم الثبات والافتخار بالفسق والفجور : حتى إنك لتجد بينهم من يفخر بذلك ، رغم براءته منه . . . تلك هى الصورة التى لا تخلو من بعض الحقائق التى لم يفلح فى تغييرها الزمان . ولكن نجاحاً فذاً يضاف إلى هذه الصفات فيخلع عليها نضرة جديدة . ففى فرنسا يسود التأدب والتهذيب ، والثقافة ورفاهة الحياة . فكانت قبلة كبار الأجانب ، يقصدونها من كل أنحاء أوربا للدراسة فى المجامع أو للتربية فى البلاط ؛ إذ تستهويهم الأساليب الفرنسية ، فيتلقون فيها دروس الرقة والتهذيب . وبذا تأخذ باريس مكان الصدارة بين كل المدن . وسحرها فى الحرية ويسر التقاليد ؛ فلن تجد فيها من يسألك عما تفعل : إذا أردت أن تغير معيشتك فما عليك إلا أن تبدل الحى . وإذا أردت أن تظهر فيها اليوم بثياب من ذهب ، والغد بثياب من الصوف الثقيل ، فمن سيسأل عنك ؟ وإنك لواجد فيها كل ما تريد ، وحالما تريد . ولا يبتكر العالم شيئاً لكى يتذوق به المرء متعة الحياة إلا ويستعملونه على الفور فى باريس . كانت روما تعلو سابقاً فوق كل مدن الدنيا : أما الآن فانها باريس .

---

(١) سلفادور دى ماداريادا : الأنجليز ، الفرنسيون ، الأسبان . لندن ١٩٢٨ . الترجمة الفرنسية ١٩٣١ ، Salvador de Madariaga, *Englishmen, Frenchmen, Spaniards*, London, 1928.

وبينما المتنافسون القدماء يبدون ضعفاء ، تتقدم فرنسا فيضاً من الروائع الأدبية ؛ وهى ليست مما تعدها دولة رائعة لكى تتعزى بها ، بل روائع شهد العالم كله بكمالها . فبعد ديكارت وكورنيل Corneille يظهر موليير Molière وراسين Racine ولافونتين La Fontaine وبوسويه Bossuet ؛ ولا يكاد هذا الجيل ينقضى حتى يدعمه ماسيون Massillon ورينيارد Regnard ولى ساج Lesage . إن هذا الفيض الأدبى يستمر ثلاثة أرباع قرن . وفى الوقت الذى ينشرون فيه « التراجيديات » و « الكوميديات » ، والقصص والمراثى ، لمؤلفين سرعان ما أصبحوا كلاسيكيين ، تجدهم ينشرون كتباً أخرى تضاف إلى هذه الكتلة لاستزادة قوتها وإسراع حركتها : فكيف يتأتى أن إنتاجاً ضخماً كهذا لا يعم أوربا ؟ وهكذ بدأ حديث التفـوق والعظمـة يمتـد ويتحقق من يوم إلى يوم . خمن قوة انتشار مؤلفـات أولئك الأعـلام ، وأضف إليهـا كتلة الذين يتبعون هؤلاء العظـام ، وأضف أيضاً المؤلفين من الدرجة الثـالثة ومن الرابعـة — (تلك العملة الصغـيرة التى نسينـا صورتهـا ولكنهـا كانت تدور فى كل مكان ،) من أمثـال بوهور ورابين وفلورى وغيرهم : حينئذ يمكنك أن تتخيل الحـركة الفرنسية وما كانت عليـه من عمق واتساع وثراء .

وازداد هذا النفوذ حتى إن الأرستقراطية الأدبية فى أوربا لم تحتج لترجمة ، فان اللغة الفرنسية تكاد تصبح لغة عالمية . هذا ما يقوله (جى ميج) Guy Miège السويسرى الذى يقيم فى لندن ، والذى نشر قاموساً فرنسياً — انجليزياً وآخر انجليزياً — فرنسياً ، « لأن اللغة الفرنسية تتحول إلى لغة عالمية » . وهذا ما يقوله أيضاً (جريجوريو ليتى) Gregorio Leti الذى ترجم فى أمستردام كتاب « حياة كرومويل » إلى الفرنسية : « لأن اللغة الفرنسية أصبحت فى هذا القرن أوسع اللغات انتشاراً فى كل أوربا : لأنه إما أن عظمة فرنسا جعلت لغتها أكثر ازدهاراً ، مثلما حدث فى الماضى إذ نشرت عظمة الرومان لغتهم فى العالم كله ؛ وإما أن اللغة الفرنسية ، بما هى عليه من تهذيب ، تتميز بجمال خاص فى وضوحها الذى لا تكلف فيه » . بيد أنه ما من شك فى أن أقوى شهادة من بين الشهادات التى يمكننا أن نذكرها هنا ، قول بايل : — « إن اللغة الفرنسية أصبحت فيما بعد حلقة الاتصال بين شعوب أوربا قاطبة ، وغدت لغة تستطيع

أن نسميها « تراتساندنتال (١) » لعين السبب الذى يجبر الفلاسفة على أن يسموا بهذا الاسم كل ما من طبيعته الانتشار فى كل الأبواب والطبقات . . . (٢) »

إن الكتب واللغة ، والأخلاق أيضاً ، وسير الحياة كانت فرنسية . أنظر إلى مكتب ذلك القصر الذى يريد التشبه بفرساى ، تجد هنالك مدرساً فرنسياً يعنى بتربية النبيل الصغير . والثياب ، والفساتين ، والشعر المستعار كانت على الطريقة الفرنسية . وممن كان يطلب الناس تعلم الرقص إلا من أساتذة الأناقة هؤلاء ، French dancing masters الذين يبذون الايطاليين؟ ثم أنزل حتى المطبخ تجد الرؤساء والطهاة يجهزون الطعام طبقاً لآخر الأصول الفرنسية ، والخدم يقدمون النبيذ الفرنسى . «يظهر أننا لا نستطيع أن نجهز مأدبة عشاء من غير نبيذ أجنبى ، نقدمه فى قنينة تسمى «بوتيل» كما هى فى الفرنسية ...» ويقول سوراتورى : « نحن الايطاليين البواسل نهرع كالقرود المضحكة إلى تقليد التبدلات الفرنسية ، وإلى كل بدعة فرنسية كأنما هى آتية من قصر جوبيتر العظيم (٣) ». ويقول الألمانى توماسيوس Thomasius فى كتابه « مقال عن تقليد الفرنسيين عام ١٦٨٧ » *Discours sur l'imitation des Français* « لو أن أجدادنا بعثوا إلى هذه الدنيا ، لما عرفونا ؛ فقد فسدت أخلاقنا وتنكرنا لأصلنا . كل شئ عندنا الآن ينبغى أن يكون فرنسياً : فالثياب والطهو واللغة فرنسية ، والأخلاق فرنسية ، وحتى الرذائل فرنسية (٤) » .

لم تعد الفرنسية تقوم مقام اللغة الايطالية والاسبانية فحسب ، بل اللاتينية أيضاً التى كانت إحدى حلقات الاتصال للمجتمع الأوربى . « كل الناس يريدون أن يتعلموا اللغة الفرنسية ؛ إنهم يجدون فى ذلك دليلا على حسن التربية ؛ ويتعجب البعض لاصرار الناس على معرفة هذه اللغة ، ولكنها صارت بينهم عادة

---

(١) Transcendantal ما يخص العقل الخالص ، أى ما يدرك بالعقل ولا تثبته التجربة . [المترجمان]

(٢) بايل : (أخبار من جمهورية الأدب) ، نوفمبر ١٦٨٥ ، الباب الخامس *Nouvelles de la République des lettres* .

(٣) كما أورده جوليو ناتالى ، (القرن السابع عشر *Il Settecente*) ، ميلانو ١٩٢٩ ، ص ٦٨ ، Giulio Natali .

(٤) كرستيان توماسيوس : Christian Thomasius, *Von Nachahmung der Franzocen,* « فى تقليد فرنسا ، طبعة *Nach den Ausgaben von* 1678 *und* 1701, Stuttgart 1894. ١٦٨٧ و ١٧٠١ ستوتجارت ١٨٩٤ .

متأصلة ؛ ففى كثير من المدن تجد مقابل كل مدرسة لاتينية عشر مدارس فرنسية ، وفى كل مكان تترجم مؤلفات القدماء إلى الفرنسية ، حتى بدأ العلماء يخشون أن تفقد اللغة اللاتينية مكانتها القديمة . . . (١)» كل هذه الأسباب الحقيقية التى عرضها البعض شرحاً لتلك الشهرة ، من قيمة اللغة الجوهرية ، إلى مزاياها الفكرية ، إلى اعتناء شعب يرى كل ما يتعلق بالنحو والصرف والبلاغة مسائل أساسية ، وهو الشعب الذى يتفرد وحده دون شعوب الدنيا بحيازته لمؤسسة رسمية تراقب استعمال الكلمات ألا وهى المجمع — كل هذه الأسباب العميقة الحقيقية ، يضاف إليها سبب هام هو طلب أوربا نفسها التى كانت فى طريق التجدد . فقد كانت اللاتينية لغة التعليم المدرسى والعلوم اللاهوتية ، تفوح منها رائحة الماضى ؛ فكانت تفقد رويداً رويداً روابطها بالحياة . ومع أنها كانت أداة كاملة للتعليم ، إلا أنها لم تكن تغنى المرء أو تكفيه بعد تخرجه فى المدرسة . أما الفرنسية فكانت تبدو كشباب جديد للمدنية : إنها تمدن المزايا اللاتينية . إنها واضحة ، قوية ، أكيدة ، وحية . إن العلم الذى يريد أن يفسر الكون بعلل أخرى غير « العلل الفعالة »(٢) ، يتطلب تعبيراً غير الذى كفى للقرون الوسطى . وإذا نحن وجدنا اللغة الفرنسية وقد أصبحت عقب معاهدة راستادت Rastadt عام ١٧١٤ ، لسان السلك السياسى ، فانما مرد ذلك إلى أن رجال السلك السياسى لم يقنعوا فى عام ١٧١٤ بما قنعت به مستشارية الأمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة . حتى ذلك اليسر وتلك الأناقة فى الكلام ، والخفة التى ينعيها الناس على الفرنسيين ، كانت تفيدهم ؛ فقد تراءوا للناس كأنهم تخلصوا من ماض ثقيل . ولقد أخذ علماء الأخلاق الأجانب ينتقدون سلوكهم وميوعتهم وإقبالهم على متاع الدنيا : ولكنه انتقاد لا طائل تحته ، فقد أصبح الفرنسيون نماذج حديثة « لاسود » . وإنك لتجد هذا التعبير الفرنسى وقد انتشر فى إيطاليا فى أواخر القرن السابع عشر ، فى الوقت الذى يعرضون فيه فى واجهات المحال التجارية دمى صغيرة يلبسونها حسب البدع

---

(١) بايل — أخبار جمهورية الأدب ، أغسطس ١٦٨٤ ، الباب السابع .

(٢) Causes efficientes — العلل الفعالة : العلل التى تحقق نتيجتها بالفعل ، فالشمس علة فعالة للضوء . والمؤلف يقصد أن التفسيرات المدرسيه القديمة للكون — من مثل ذلك — لم تعد تكفى للروح العلمية الحديثة فى ذلك الوقت . [المترجمان]

الباريسى ، البدع الحديث . وإنك لترى الانجليز يستعملونه أيضاً : فالسيدات يرتبن شعرهن طبقاً لأحدث بدع As the mode is ؛ والمكاتب توصى على The à la mode secretary ؛ وينتقد توماس براون فى أحد مؤلفاته (١) « بدع النفاق » ؛ ويعرض (فاركار) فى كتابه « الزوج الوفى » البدع اللندنى The à la mode Londres مقابل البدع الباريسى : The à la mode France ؛ ويقدم (ستيل) على المسرح The funeral, or Grief à la mode ؛ ويفسر لنا أديسون فى مقدمة كتبها لهذه الملهاة ، سر ذلك الاعجاب المفرط :

Our author . . .
Two ladies errant has exposed to view :
The first a damsel , travelled in romance ;
The other more refined : she comes from France . . . (٢)

وما هذه إلا حالة خاصة لحركة عامة ، إنه عرض يجيب إلى طلب : وهكذا ستطيع أن ندرك سيادة فرنسا ، وهى سيادة لا تستند على القوة ، لأن القوة لا تكفى لقيام دولة وطيدة فى ميدان الفكر ، بل سيادة مبنية على ارتضاء عالمى . ففى كل مكان تطنطن اللغة الفرنسية ، فى إسبانيا وفى مستعمرات اسبانيا حتى ليما (عاصمة بيرو) حيث يمثلون فى عام ١٧١٠ اقتباساً لمسرحية رودوجين Rodogune (لكورنيل) وملهاة « النساء العالمات » *Les femmes Savantes* لموليير ؛ وفى هولندا حيث تقاوم المواهب الأهلية بلا جدوى ، وفى بولاندا حيث يضمحل النفوذ الايطالى تدريجاً بينما النفوذ الفرنسى يتسع ويقوى ؛ إن الناس يقرأون المؤلفات الفرنسية فى كل مكان ، حتى إن الفكر الفرنسى يسم بطابعه كل الأذهان.

وضعت فرنسا أساس هذه المملكة ، وإذا بمنافس يظهر ، ويا له من شئ معدوم النظير ! إنه دولة من الشمال !

***

كانت إنجلترا فى أول الأمر تقف فى طريق السياسة الفرنسية . فهى لم تقبل

---

(١) *The Stage-Beaux tossed in a Blanket*.

(٢) يقدم مؤلفنا على المسرح سيدتين مرتحلتين ،
أولاهما آنسة سائحة فى بيداء الخيال ،
أما الثانية فأكثر تهذيباً ، فهى قادمة من فرنسا ...

أن تتخلى لفرنسا لا عن البحر ولا عن الأرض ؛ وهى لم تكن تحاربها على السيادة فحسب ، بل أيضاً على مبدأ السلطة الذى كان أساساً للحكم الملكى . فنشبت مبارزة بين لويس الرابع عشر ووليم أورانج ، وكانت مبارزة بين بطلين رمزيين . حينما طرد وليم أورانج جاك الثانى من عرش انجلترا عام ١٦٨٨ واعتلى الحكم بدلا منه تحت رقابة البرلمان ، أخذ لويس الرابع عشر ذلك اللاجئ تحت حمايته الشخصية وأسكنه أروع مسكن فى سان جرمان — لاى ، وهو فى ذلك إنما كان يدافع عن الحق الالهى ممثلا فى شخص جاك الثانى . ولكن بعد حرب طويلة بينهما ، اضطرت فرنسا إلى التسليم أمام القوات المتحدة ، وتوقيع صلح رزويك عام ١٦٩٧ ؛ فيا للاهانة التى لحقت بالملك العظيم ! لقد اضطر أن يعترف بسلطة خصمه وأن يصادق على شرعية حكمه ، بمحض رضائه ، خاذلا بذلك جاك الثانى ، ابن عمه ، بل أخاه .

من كان إذن ذلك الشعب الذى فرض حكمه على أوربا ، والذى أهان فرنسا فى مرة واحدة إهانة لم يلحقها مثلها إبان خمسين عاماً ؟ لشد ما كان هياج الرأى العام الفرنسى ، حتى إننا نستطيع أن نستشف الثورة الانجليزية من وراء الستار الفاخر لتراجيدية راسين أتالى *Athalie* ، ولا سيما أن الناس أخذوا يترنمون فى « ديجون » فى عام ١٧٠٩ بأغنية مثل التالية :

Le grand-père est un fanfaron,
Le fils un imbécile,
Le petit-fils un grand poltron,
Ah ! la belle famille !
Que je vous plains, peuples français,
Soumis à cet empir !
Faites ce qu'on fait les Anglais,
C'est assez vous le dire ... (١)

---

(١) إن الجد يدعى الشجاعة ،
والابن مغفل سخيف ،
والحفيد جبان رعديد ،
يالها من أسرة بديعة !
إنى لأشفق عليك ، أيها الشعب الفرنسى ،
الخاضع لتلك المملكة !
افعل ما فعله الانجليز ،
كفى أن أقول لك ذلك ...

ولم يبد على ذلك الشعب العظيم فى بداية عهده الزاهر موهبة للأدب . فقد طلب لويس الرابع عشر من سفيره فى لندن إخباره بأسماء الفنانين والأدباء فى انجلترا ، فأجاب السفير بأن العلم والأدب يتركان أحياناً بلداً لكى يخلعا على بلد اخر المجد والشرف ؛ وأنهما قد انتقلا الآن إلى فرنسا ؛ وإذا كان لا يزال فى انجلترا أثر للأدب ، فهو ليس سوى ذكرى بيكون ، وبوكانان ، والمدعو « ملتونيوس » الذى جلب على نفسه من العار بمؤلفاته الخطرة أكثر مما يجلبه القاتل الذى يغتال مليكه .

بيد أنه بعد ذلك بقليل ، كان على فرنسا أن تسمح للانجليز باستيـاز : امتياز التفكير . وهنا أيضاً نجد التعارض قائماً : ففى فرنسا فن الحياة ، وفن الحديث ، وحلاوة الشمائل ، ونزاهة الفكر . وفى انجلترا قوة الفرد ، والعمق والجرأة فى البحث ، وحرية التفكير . ولو لم يكن لدى هذه الأخيرة إلا كتاباً سطحيين ، ومؤلفى « كوميديات » ماجنة ، تعرض على المسرح السلوك فى عهد إعادة الملكية La Restauration ، مثل ويكرلى Wyckerley ، وكونجريف Congreve ، وفانبرو Vanbruh ، وفارقار ، لكان عليها أن تقنع بمكانة التابع : لأنها كانت تقلد فرنسا ، وتنتهب مؤلفيها دون خجل أو حياء ، لكن ها هى ذى تناقش علناً مسائل هامة أرفع مما يتعلق بالروايات الغرامية أو وصف الشخصيات الفاجرة . فهى لم تتجنب الخوض فى المسائل الدينية بدعوى أنها مسائل قد بت فيها ، بل هى لا تكف عن مناقشة الطرق المختلفة التى يستطيع بها المرء أن يتعرف علاقاته بالاله : فمن التصوف البوريتانى لبونيان ، إلى مذهب (كلارك) و (تيلوتسون) أى الموافقة المنطقية على الدين السائد conformisme ، إلى مذهب (تولاند) أى الاعتقـاد بالله مع إنكار الوحى Déisme . وكانت تشتغل مع (لوك) فى إعداد فلسفة جديدة ؛ وكانت تعمل مع (نيوتن) على انقلاب فى العلم : فقد كتب هذا الأخير مؤلفه (المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية) *Philosophiae naturalis principia mathematica* فى عام ١٦٨٧ . من هنا منشأ قوة انجلترا الحيوية التى كانت محل إعجاب الفرنسيين :

Les Anglais pensent profondément ;
Leur esprit, en cela, suit leur tempérament ;

Creusant dans les sujets, et forts d'expériences,
Ils étendent partout l'empire des sciences ... (١)

وأخيراً تجاسر الانجليز على مر الزمن ، فطالبوا بالمجد فى ميدان الأدب : ومنذ ذلك الحين انقسمت مملكة الفكر انقساماً قطعياً . ولقد ظنوا عقب وفاة (درايدن) ، فى عام ١٧٠٠ ، أنهم فقدوا شاعرهم الكبير الوحيد ، فاذا بهم يجدون البعث الاعجازى الجديد . فاذا سألتهم عن الفلاسفة قالوا لدينا كدورث و بركلى ؛ وإذا سألت عن علماء الأخلاق قالوا لدينا (أديسون) وستيل وآربثنوت وشافتسبورى ، ولدينا من العلماء (بنتلى) ، ومن الشعراء (بوب) و (جاى) و (برايور) و (سويفت) ذلك العبقرى الذى يستطيع التفوق فى كل فن وفى كل فرع ، وما ذكرنا هنا إلا العظام . وكان الانجليز يعرفون قيمة تلك الثروة تمام المعرفة ، فعظموا علماءهم ومؤلفيهم وأحاطوهم بصنوف التقدير والتكريم : لقد أخذ العلماء والمؤلفون الفرنسيون يحسدون الانجليز ، فسبحان مغير الأمور ! ولقد أزفت ساعة النصر ، حيث النبات القوى الذى غذته عصارة الماء مدة طويلة ، يفيء أخيراً زهرته الرفيعة .

وإنك لتلاحظ لدى مؤرخى الأدب الانجليزى ، شيئاً من المباهاة عندما يحكون قصة تلك السنين العظيمة . قال (ادموند جوس) Edmund Gosse « فى عام ١٧٠٢ جلست الملكة آن على العرش ، وتحت ظل حكمها القصير حدثت نهضة رائعة للأدب الانجليزى ، على أيدى طائفة من الرجال الذين أوتوا موهبة وابتكاراً ليس لهما مثيل . ففيما بين عام ١٧١١ ، وعام ١٧١٤ انبثقت فى آن واحد من مطابع لندن طاقة من المؤلفات الرائعة نثراً وشعراً . فكأنما ريح قد قشعت ضباباً كان يخيم على السماء من أمد ، فكشفت بعض روائع النجوم . فى عام ١٧٠٢ لم يكن فى أوربا بلد يدانى انجلترا فى فراغها

---

(١) إن الانجليز عميقو التفكير ،
وفى ذلك تتمشى عقولهم مع طباعهم ،
يمحصون المسائل ، ويتوفرون على التجارب ،
فيمدون مملكة العلم إلى كل مكان ...
(لافونتين ، حكايات ، ١٦٩٤ ، الجزء الثانى عشر ، الثعلب والحصرم)
La Fontaine, *Fables*, Livre XII, « Le renard et les raisins. »

الفكرى التعس ؛ وما أتى عام ١٧١٢ حتى غدت فرنسا ذاتها عاجزة عن أن تقارن نفسها بزميلتها من حيث المؤلفات الأدبية نوعاً ومقداراً » . أما عام ١٧١٣ فكان عاماً إعجازياً ! « إن كتاب المحادثة الصغير الذى نشره بيركلى تحت عنوان *Hylas et Philonoüs* يرجع إلى ذلك العام الذى لا ينسى annus mirabilis ، عام ١٧١٣ ، — ففيه وصل بوب Pope وسويفت Swift واربثنوت Arbuthnot وأديسون Addison وستيل Steele إلى ذروة العبقرية ، وفيه قدمت انجلترا فجأة مجموعة من مواهب أدبية رائعة ، حتى لم يكن فى أوربا بلد يستطيع مساواتها أو الاقتراب منها » .

لقد قضى الأمر ؛ فان الضوء كان يشع من الشمال ، وكان للشمال الحق فى أن يواجه الجنوب ظافراً . ونستطيع أن نطبق على المؤلفات الفكرية تلك الكلمات التى كتبها شاعر إذذاك :

What fine things else you in South can have,
Our North can show as good, if not the same ... (١)

ولشد ما كانوا مغرورين بانتصارهم ، أولئك الانجليز الذين وصلوا إلى طليعة الصفوف ! كانوا يتطلعون وراءهم لكى يروا الشوط الذى قطعوه من الطريق ، قائلين إنهم كانوا فى موقف يأس وقنوط ، يهددهم فى حريتهم وفى دينهم بل فى أرضهم ذاتها أعظم الملوك ، لكن سرعان ما تغيرت فى أوربا الأمور ، وأخذت وجها آخر ، حتى إنه ، والشكر لله ، قد انهزم الظالمون وانتصر الصالحون ؛ وبالصالحين كانوا يقصدون أنفسهم . وكانوا يمدحون فلسفتهم ، وأدبهم ، وكل كيانهم . وفى تلك السنين بدأت حركة ما زلنا نحس أثرها حتى اليوم . وحقاً ، من يصدق أنه منذ عام ١٧١٣ ، أخذوا يعرضون اللغة الانجليزية مقابل الفرنسية ؟ يقول (آبل بواييه) : « إن اللغة الانجليزية منافسة اليونانية واللاتينية ، لغة مثمرة قوية ، وهى — كالشعب الذى يستعملها —

---

(١) كل شىء جميل يمكن أن يوجد فى الجنوب ،
يستطيع شمالنا أن يقدم مثله أو ما يوازيه ...

John Rawlet, *An account of my life in the North*, (Poetick Miscellanies London 1687.)

عدوة القسر والاجبار ، فهى تتقبل كل ما يساعد على جمال التعبير وعظمته . بينما الفرنسية التى ضعفت وافتقرت لمبالغتها فى الرقة وخجلها ، وعبوديتها للقواعد والعادات ، لا تسمح أبداً لنفسها بشئ من الحرية ولا تقبل أبداً أى جسارة موفقة . . .(١)»

***

ولا بد من توافر شروط عدة ، لكى تتدفق تلك القوة الحية وتؤثر . ويبدو أنه يجب أولا إبدال الرواسم « الكليشيهات » القديمة بصورة أصدق وأوفر تشويقاً وجاذبية . كانت الطبقات الراقية تستحب الرحلة إلى باريس ، لكن من كان يود زيارة لندن ؟ عندئذ بدأت منذ سنة ١٦٦٠ الفترة النشيطة للسفر إلى انجلترا . وكانت العوائق عديدة متنوعة : أخلاق يعتقد الناس أنها بربرية ، ولغة لا يدركونها ، وقبل كل شئ ، ذلك البحر المصطخب الذى كان عليهم أن يعبروه ، والذى كان يرهب القلوب : ويعلم القارئ قصة ذلك الأب النورماندى الطيب الذى سافر إلى شر بورج لكى يخاطر باختراقه ، والذى عدل عن السفر لما رأى لجج الأمواج ، وعاد إلى بيته مؤثراً السلامة . إلا أن سكان المدن الساحلية ، لاعتيادهم المخاطرة ، أقدموا على الخطوة الأولى ؛ ورحل النبلاء قاصدين البلاط الملكى الانجليزى ، والعلماء والأدباء وحتى الأفراد العاديون ، يدافع من حب الاستطلاع . فالسفينة والجمرك والمركبة والفندق ، بما فيها من مشاق ، والطريق والبرازى ، والعشب الرقيق أبدع عشب فى العالم ، ولندن وتحفها وطرائفها ، والتامیز المفروش بالسفن ، وويستمنستر ، والبرج ، والأخلاق الانجليزية الغريبة ، وطرائف الانجليز فى الطعام وفى الشراب ، وعاداتهم العجيبة فى التسلية بما فيها من صرامة وكآبة : كل ما فى هذا الاكتشاف من متع ومشاق كانت تصبغ حكايات السفر بمسحة من المغامرة والبطولة . وجملة القول ، أن الناس بدأوا منذ ١٧١٥ يعرفون انجلترا ، فليس على الأجيال المتتابعة أن تعانى رسم مسودة بل ستكتفى بالتصحيح ، استكمالا للوحة احتلت فيما بعد مكاناً فى رواق الشعوب .

---

(١) آبل بوابيه . مقدمة ترجمة كاتون لأديسون ، ١٧١٣ . Abel Boyer, *Préface à la traduction du Caton d'Addison*, 1713

***

وعما قريب سنرى الأفكار الانجليزية تهاجر إلى ألمانيا . و بجلوس أسرة هانوفر البروسية على عرش انجلترا ، ترتبط الدولتان بروابط سياسية . و إنهما لمرتبطتان من قبل ، جزئياً على الأقل ، بالدين البروتستانتى ، بالكراهية المشتركة للكنيسة الكاثوليكية ، وبالمعارضة المشتركة ضد روما . فى عام ١٦٩٧ ، امتدح أندريه ادم هوتشستتر André Adam Hochstetter الأستاذ بتوبنجن Tubingen فى خطبة باللاتينية فائدة السفر إلى انجلترا *Oratio de utilitate peregrinationis anglicanae* فقال : « لن أمتدح خصب انجلترا ، ولن أطرى تحف لندن : تلك المدينة العظيمة ، التى سأتحدث عن علمها ؛ و أكثر من ذلك فانى سأتحدث عن دينها . من بيننا يجهل بأى شجاعة وشهامة عارض صفوة الرجال — تحت حكم جاك الثانى — مبعوثى الكنيسة الرومانية اليهودية ، وكيف دافعوا عن قضية يشتركون فيها معنا ؟ » وسنرى بعد ذلك مقدم الفلسفة مع لوك ، وسيتبعها الأدب . وسنشاهد التأثير المؤكد للتفكير الانجليزى على التفكير الألمانى ، فى انفصال هذا الأخير عن الطرائق الفرنسية ، التى كانت تبعد كثيراً عن جوهره العميق ؛ وفى تقديم نماذج أخرى أقرب إليه وآلف ، وفى المؤازرة على تحريره ، حتى يصل يوماً إلى لونه الأصيل . وفى غضون القرن الثامن عشر ، تتبدى لنا على أرض ألمانيا نتائج صعود انجلترا مدارج المجد : تمرد على السيادة الفرنسية ، وتحالف الشمال ضد فرنسا .

ولكن كيف السبيل إلى بلاد الجنوب ، وأى طريق ينبغى أن نختار؟ فالمؤلفات التى تظهر فى لندن كانت معرضة لانتظار طويل كى تصل إلى تلك البلاد ، لأن اللغة الانجليزية كانت مجهولة فى أرض أوربا ، ولأن الذين يقرءونها من اللاتين عدد قليل ، والذين يتكلمونها أقل . ولذا لم يكن يقدر لانتشارها أن يزداد سرعة ، إلا بمعجزة . فقد انتفعت اللغة الانجليزية باللغة الفرنسية المعروفة فى كل مكان ، فأخذت فرنسا على عاتقها نشر الكنوز المخبأة فى الجزيرة . « إنها لخسارة أن تبقى مؤلفات بمثل هذا الجمال حبيسة بين الحدود الضيقة للجزر البريطانية . فمهما كان فى اللغة الانجليزية من جمال ، فان الفرنسية تفوقها لأنها لغة الاتصال بين كل شعوب أوربا تقريباً . ويمكننا أن نقول بحق

فى صدد الموازنة بين الفرنسية والانجليزية من حيث مدى الانتشار ما قاله شيشرون Cicéron عن اليونانية واللاتينية فى عصره ، فى مقاله *Pro Archia* (١):

« graeca leguntur in omnibus gentibus; latina suis finibus, exiguis sane, continentur .... » (٢) وعندما يحين الوقت المناسب ، ستتكون طائفة من المترجمين ، و يحضر للاقامة فى لندن عدد وفير من الفرنسيين ، و بما هم عليه من حذق وثقافة ، سيتصلون بالأدب الانجليزى ، ويظهرون الاهتمام به ، و يختارون أروع مؤلفاته وينشرونها ، لكى يستعينوا على العيش ، وفى نفس الوقت لكى يعبروا عن شكرهم لدولة أحسنت استقبالهم وأكرمت وفادتهم . حقاً ، لقد كان من المحال أن يجد الأدب الانجليزى سبيلا للانتشار أسرع من تلك السبيل : إلا فى الأحلام ...

ومع ذلك فقد تحقق هذا الحلم بالضبط : تحقق بفضل الاضطهاد الدينى الذى طرد القسس البروتستانت ، والأساتذة ، والمؤلفين ، من فرنسا وأجبرهم على الالتجاء إلى لندن حتى جعل منهم مفسرين للتفكير الانجليزى . والحق أنه لم يحدث كل ذلك طبقاً لتلك الخطة المرسومة ، فلقد بدأت من قبل بعض العلاقات وتم بعض الاعداد ؛ لم يحدث شئ فجأة وعلى غير استعداد . وفوق ذلك فان المنفيين لم يكونوا يعملون فى سبيل نشر الأدب الفرنسى فى انجلترا ، أقل مما كانوا يعملون على تصدير الأدب الانجليزى إلى أوربا . إلا أن إحدى النتائج غير المتوقعة لفسخ أمر نانت Révocation de l'Édit de Nantes كانت اكتساب انجلترا حشداً من الوسطاء ، الذين عجلوا انتشار مؤلفاتها واتساع نفوذها بطريقة غير منتظرة : لقد وجدت انجلترا تحت تصرفها ، قبيل استعادة عهدها الزاهر ، المبشرين الذين سوف يعلنون مدها على العالم المتمدن .

من كان هؤلاء المبشرون ؟ لم يكونوا عباقرة ، ولكنهم كانوا مدفوعين بحب الاستطلاع ، كانوا عقولا نشيطة ، شخصيات قوية ، قبلوا فى شهامة

---

(١) *Pro Archia* لأرشيا : إحدى المرافعات المشهورة للخطيب الرومانى شيشرون تتضمن مدحاً رائعاً للآداب . [المترجمان]

« كل الناس يقرءون اللغة اليونانية بينما اللاتينية محدودة ... »

(٢) نبذة من المقدمة التى كتبها (ريكوتييه) فى مقدمة ترجمته لكتاب « كلارك » عن « وجود الله وصفاته » استردام ١٧١٧ .

Extrait, de l'*Avertissement* mis par Ricotier en tête de sa traduction de S. Clarke, *De l'existence et des attributs de Dieu*, Amsterdam, 1717.

مغامرة النفي الكبرى ، ولم يقنعوا بالخبز الذى يغذى الجسم ويقيم الأود . كانوا أصدقاء التجديد . . . Abel Boyer (آبل بوابيه) ، الذى بدأ دراسته فى المجمع البروتستانتى ببيلورانس Pylaurens وكان يبلغ التاسعة عشرة عندما فسخ لويس الرابع عشر أمر نانت ؛ فرحل إلى هولاندا ثم إلى انجلترا فى ١٦٨٩ واشتغل بالتدريس لكى يكسب قوته هناك . نشر تراجم من الفرنسية ومؤلفات للمدارس ، وفى عام ١٧٠٢ نشر القاموس الملكى *Dictionnaire royal* الذى تستشيره أجيال بأكملها ، فيفيد انجلترا ، وتعده فرنسا كتاباً كلاسيكياً . وسيترجم «كاتون» مؤلف أديسون Le Caton d'Addison الذى سيقدم لأوربا أروع تحف التراجيديا البريطانية . وسيكون تقريباً المؤرخ الرسمى لانجلترا ، ويشترك فى المجادلات الأدبية لذلك الوقت ، ثم يموت فى هدوء ، بعد كثير من النوازل والآلام فى منزل بناه فى شيلسيا كأى بورجوازى لندنى . — وبيير دى ميزو Pierre des Maizeaux وهو ابن قسيس بروتستانتى ، رحل إلى سويسرا عندما بدأ اضطهاد البروتستانت ، درس علم اللاهوت فى بيرن وجنيف ، وكان أبوه يتمنى «أن يكون خلفاً صادقا له لاعادة بناء أسوار بيت القدس المهدمة» . وهو يجرب حظه فى هولاندا ، حيث عرف بيير بايل Pierre Bayle : الذى لم يكن بذاته الأستاذ الصالح للأرثوذكسية . لذلك لن يصير دى ميزو قسيساً ، بل سيكون أديباً ، متحرراً . ارتحل إلى انجلترا : سويسرا، فهولاندا ، فانجلترا ، ما أكثر اللاجئين الذين سلكوا هذا الطريق ! ولما كان قد نشر علاوة على أعماله الأخرى — مؤلفات سانت أفريموند Saint-Évremond وبايل ، ولما كان صديقاً لشافتسبرى Shaftesbery وتولاند ، وكولنز ، ونشر بعضاً من مؤلفات لوك Locke ، وتولاند ودرس فى شلنجورت ، وجمع نصوص المناقشة الهامة التى احتدمت بين ليبنتز وكلارك Clarke ونيوتن Newton على الفلسفة والعلم والدين ، ولما كان يرتاد المنتديات ، ويراسل الجرائد ويكتب الرسائل ، ويتوسط لطلاب الوظائف ، ويقدم المعونة للمحتاجين ، فقد كان على منتهى الطرق التى لا تمر بها الأفكار فحسب ، بل الناس أيضاً : لكل هذه الأسباب مجتمعة فهو يمثل التبادل فى الحياة الفكرية بما فيه من حمى ومغامرة واضطراب بجانب ما فيه من نفع جزيل وإثمار غزير .

ومع بيير كوست Pierre Coste ، نصل بلا شك إلى أعلى مراتب هؤلاء العاملين الطيبين . ولد بيير كوست فى أوزيه Uzès فى عام ١٦٦٨ ،

فما كان قد كرس للسلك الاكليريكى فانه ذهب إلى مجمع جنيف : ولو أنه أكمل دراسته لصار أستاذاً أو قسيساً ، ولأقام فى مكان ما فى « السيفين » بأواسط فرنسا ، يمجد مذهبه ويعظ المؤمنين ويموت فى داخل أفقه الضيق المحدود . ولكن فسخ أمر نانت يمنعه من الدخول إلى فرنسا ، فيصبح من التائهين . تراه فى جامعات لوزان وزيورخ ، وليدن ؛ ويلتحق فى عام ١٦٩٠ بمجمع كنيسة فالون فى أمستردام . وبعد ذلك يعمل كمصحح فى مطبعة ؛ وفى ١٦٩٧ يشد رحاله إلى انجلترا ، حيث يثبت فيما بعد مكانته فى تاريخ الأفكار . سيعمل مربياً لدى عائلات الأشراف ، وسيجوب أوربا مع تلامذة منتخبين كرائد لهم فى (دورتهم الكبرى) . وسيغدو عضواً فى « جمعية لندن الملكية » ، وينشر المقالات الفلسفية ، والأبحاث التاريخية ، كما ينشر مؤلفات لابرويير La Bruyère ومونتانى Montaigne ولافونتين . ويترجم من اليونانية إكزينوفون ، ومن الايطالية جريجوريوليتى ، وريدى ؛ ولكنه سيترجم من الانجليزية على الأخص : كتاب شفتسبرى عن عادة السخرية *Essai sur l'usage de la raillerie* ؛ وكتاب نيوتن عن « علم البصريات » *Traité d'optique* . نيوتن ، شفتسبرى ! إن المشاركة فى تعريف فرنسا بهؤلاء الأعلام ، ثم تعريف كل البلاد اللاتينية بهم عن طريق فرنسا ، لعمل جبار مجيد . ولقد كان عمله أكثر قيمة ، وأشد روعة ، فانه كان مترجم لوك : ترجم إلى الفرنسية باجتهاد وغيرة « بحث فلسفى عن الادراك الانسانى » وهكذا فتح لأوربا أبواب الفلسفة الانجليزية — « إن الفرنسيين مدينون لكوست بما يدين به الانجليز للوك . . . (١) »

وما دمنا لا نستطيع ، عندما نتتبع سير الأفكار ، أن نتمالك أنفسنا من الاعجاب بما تتخذه من طرق غير متوقعة ، فلنعجب أيضاً بالسرعة وبالسهولة التى تتقبل بها فرنسا الدور الذى تمليه الظروف . فانها لا تذعن لهذه القوة التى تظهر فى الشمال والتى تهدد سيادتها فحسب ، بل إنها تخدمها . فهى تضيف إلى نشاطها الابداعى الأساسى ، نشاطاً جديداً ؛ إنها ستروج القيم الشمالية فى الأسواق اللاتينية . وهى ستقوم بدور الوسيط للفكر البريطانى ، لدى عملائها الايطاليين والبرتغاليين والاسبان . وهى تتوسط فى بعض الأحايين بين

---

(١) دارجان : رسائل أخلاقية ، الكتاب الأول D'Argens, *Lettres morales*, I. XXIII.

الشمال والشمال ، حتى إن المؤلف الذى يجئ من لندن سيمر بباريس قبل أن يعبر الرين . ولكنها فى الغالب لا ترسل إنتاجها فحسب بل الانتاج الانجليزى أيضاً ، ثم الانتاج الألمانى ، إلى روما وإلى لشبونة وإلى مدريد . وهى سترسله لا كما يفعل البريد العادى ، من غير اهتمام بما يحمله ، بل إنها على العكس ستزينه وتجمله ! وستجعله يلائم « العادات المشتركة فى أوربا » ، أى الذوق الذى يسود أوربا بفضلها ، الذوق الفرنسى . إن هؤلاء الانجليز ليسوا واضحين ، فيجب أن نوضحهم ؛ إنهم لا يتبعون قواعد المنطق الصريح ، فينبغى أن ندخل النظام على أفكارهم ، إنهم يسهبون فى الكلام فينبغى أن نحملهم على الايجاز . وهم غلاظ جفاة فينبغى أن نهذبهم ونلينهم . وتشرع فرنسا فى العمل ، فتغير الثياب ، وتقطعها ، وتفصلها من جديد ، وتضع على الوجوه الأصباغ والمساحيق . ومع ذلك فلا يزال الأشخاص الذين تقدمهم إلى العالم ، يبدون غرباء إلى حد ما : لكن إلى درجة إثارة الاعجاب دون الدهشة . وفرنسا عليمة بفضلها ، عارفة بذوق جمهورها ، ولذا فهى تتناول مع مصالحها الشخصية ، مصالح انجلترا ومصالح أوربا . والمترجمون الذين تستخدمهم يعلون فضلا وشرفاً : فهم لا يعملون كالعامل البسيط الذى يتوخى أمانة الرقيق ، بل يصبحون بدورهم مبدعين ، أو على الأقل مفوضين كاملى السلطان . يقول بيير كوست : « كلما وجدت أنى لا أدرك تمام الادراك فكرة بالانجليزية ، لاشتمالها على معان غير أكيدة (لأن الانجليز ليسوا مدققين مثلنا فى هذا الصدد) اجتهدت بعد تفهمها ، أن أشرحها بالفرنسية فى وضوح ، حتى يصبح من المحال أن يصعب فهمها على القارئ . إن الفرنسية تمتاز على الأخص بوضوحها عن غيرها من اللغات . . . وعلى ذلك يخيل إلى أننا نستطيع الموازنة بين المترجم والمفوض ذى الحقوق الكاملة . ولما كانت هذه موازنة بديعة ، فانى أخشى أن ألقى العتاب والتثريب على مبالغتى فى تقدير عمل لم يجد بعد فى العالم ما يستحق من تقدير . على أنه ، مهما كان الأمر ، يبدو لى أن المترجم والمفوض لا يستطيعان الاستفادة المبتغاة بكل مزاياهما لو بولغ فى تحديد حقوقهما . . . (١) » .

---

(١) بيير كوست فى مقدمة ترجمته « بحث فلسفى عن الادراك الانسانى » للوك ، أمستردام ١٧٠٠ .
Pierre Coste, *Avertissement de la traduction de l'Essai philosophique concernant l'entendement humain*, Amsterdam, 1700.

فرنسا ، وسيطة بين الفكر الانجليزى والبلاد اللاتينية : مجرى يبدأ هنا ، ويمر على القرن الثامن عشر بأكمله وما بعده .

***

سفن تصل حتى وسط المدينة لافراغ شحنتها ، والحق أن المدينة كلها ليست إلا ميناء واسعاً ؛ عمارات فاخرة ، البورصة ، المصرف ، فندق شركة الهند ، بيوت رائعة على طول القنوات ، نشاط منتظم ، مظهر ثراء ، لا شحاذون ولا فقراء ، بل تجار أقوياء وقوم سعداء : هذه هى أمستردام ، كما يتخيلها الغرباء . إنها تبدو لهم وكأنها أرض النعيم :

Je vois régner sur ces rivages
L'innocence et la liberté.
Que d'objets dans ce paysage,
Malgré leur contrariété,
M'étonnent par leur assemblage !
Abondance et frugalité,
Autorité sans esclavage,
Richesses sans libertinage,
Noblesse, charges, sans fierté :
Mon choix est fait ... (١)

إن هولاندا لموسرة وعظيمة . وهى ، وإن كانت انجلترا تنافسها فى ميدان

---

(١) أرى الطهارة والحرية
تسودان تلك الشواطىء .
وما أكثر ما فى هذه المنطقة من أشياء ،
أشياء يحيرنى تجمعها ، بالرغم من تنافرها !
فالكثرة مع القناعة ،
والسلطة بغير عبودية ،
والثراء بغير خلاعة ،
والأصالة بغير عجرفة :
لقد قر قرارى ، وتم اختيارى . . .

قطعة منسوبة إلى جان باتيست روسو ، مسجلة فى مؤلفات شوليو ، طبع ١٧٧٤ الجزء الثانى ص ٣٠٤ .

Pièce attribuée à J. B. Rousseau, et recueillie dans les *Oeuvres de Chaulieu*, éd. 1774.

التجارة ، وإن كانت توشك بعد سنة ١٦٨٨ أن تكون القارب المشدود إلى السفينة الكبيرة ، ومع أنها كانت تفقد رويداً رويداً الروح الحربى ، وحب المغامرة التى جعلت منها قوة عظيمة فى البحر والأرض يحسب حسابها ، فان هذا التبدل لا يدل على فقرها بل على أنها تتمتع بغناها ورفاهتها . ومع ذلك فان لديها وسيلة أخرى تملأ بالذهب والفضة خزائنها : المصرف . إنها تمثل النموذج الأول للدول الرأسمالية ، فماليتها لا تزال تغتنى وتدعم .

وهذه الحركة المالية الواسعة تقتضى بطبيعة الحال أن تكون هولاندا وسيطة . فهى وسيطة فى السياسة ، ما دامت فى حاجة إلى قارة متوازنة ، إلى أوربا يسود ربوعها السلام . وهى أيضاً ملجأ وملاذ للأديان . فمن يبذل جهده للتبشير يهودى فهو مسيحى صالح ، ولكنه ليس بالتاجر الماهر . فهولاندا ترعى حرية الضمير ، أولا لأنها تحملت الاضطهاد زمناً طويلا من جراء عقيدتها ، ولأن تاريخها قصة كفاح أبطال فى سبيل استقلال العقل ؛ ثم إنه لا يمكنك أن تجد تجارة أو مصرفاً ، إذا طلبت من الناس شهادة بعمادتهم . ولذا فهى تسمح بقيام الكنائس ، والمعابد اليهودية ، إلى جانب معابدها . إلا أن هذا التسامح ليس مطلقاً ، فان المنازعات بين القسس تجبر السلطات على التدخل فى الأمر ؛ وهذه السلطات تحارب ، أكثر منها فى أى مكان آخر ، المبادئ التى قد تؤدى إلى انهيارها . ولكن تلك الحرية ، وإن كانت نسبية ، جميلة نادرة .

وهولاندا وسيطة أيضاً بفضل جامعاتها . فحول منابرها تتجمع طوائف من طلاب العلم يقبلون من الشرق والغرب ، من الشمال والجنوب ، لسماع الأساتذة الذين تجد بينهم الفرنسيين والألمان فضلا عن الهولانديين . « لقد تقابل فيها أناس وكتب وأفكار من مختلف البلاد ، وحدثت فيها مبادلات فكرية لم يحدث مثلها فى أى مكان آخر فى ذلك الوقت . . . ففى غضون القرن السابع عشر بأكمله وخلال فترة طويلة من القرن الثامن عشر ، درس الانجليز والفرنسيون والاسكتلنديون والدنمركيون والسويديون والبولانديون والمجريون ، فضلا عن عدد أكبر من مواطنيها ، فى جامعات أترخت وجرونتج وفرانكر وليدن . . . (١) »

(١) ج . هويزنجا : فى دور الوسيط الذى قامت به الأراضى الواطئة بين أوربا الشمالية والوسطى ، ١٩٣٣ ، J. Huizinga, *Du rôle d'intermédiaires joué par les Pays-Bas entre l'Europe occidentale et l'Europe centrale*

ولما فسخ أمر نانت كانت هولاندا على استعداد . وقبل ذلك كانت هذه الأرض المتسامحة الحانية معتادة أن تشاهد حضور الانجليز المنفيين من بلادهم ، الملكيين فى ظل نظام كرومويل ، والجمهوريين تحت حكم شارل الثانى ؛ فى وسط كل هذه البلابل والثورات ، كلما شعر انجليزى من ذوى المكانة أنه ليس فى أمان ، كان يلتجئ إلى هولاندا ، كائناً اسمه ما كان ، سواء فى ذلك شفتسبرى ، أو لوك ، أو كولنز ؛ وهناك كان ينتظر فى سلام ، انفراج العسر وصفو الأيام . ونحو عام ١٦٨٥ كان الهوجونوت الفرنسيون ، قد أقبلوا يطرقون أبواب مدنها ، فأكرمت وفادتهم وقابلتهم كعادتها بالعطف والترحاب . وبذلت جهدها حتى استطاعت أن توفر لهم المناصب فى مصانعها ، وفى جيوشها ، وفى مدارسها . قبلتهم بين أهلها ، لأنها كانت نفسها بروتستانتية ، ولأنها كانت تكره سياسة لويس الرابع عشر ، ثم لأنها كانت رحيمة وافرة الانسانية .

حينئذ حل وقت دورها الدولى الكبير . كانت أوربا التى تنشد تعبيراً لضميرها الذاتى ، فى حاجة إلى صحف تكون أوربية حقيقية ؛ فأهدى الهوجونوت الفرنسيون هولاندا هذه الهدية الرائعة ، مقابل ما قدمت لهم من حرية وكرم ضيافة . لطالما جرب الناس ذلك ولم يفلحوا أبداً لأسباب مختلفة . فصحيفة العلماء *Le Journal des Savants* — العميد المحترم — تبقى حبيسة فى حدود فرنسا ، بالرغم من جهودها المتكررة للاتصال بالتفكير الأجنبى . وصحيفة التقارير الفلسفية *Philosophical Transactions* كانت أميل إلى العلم منها إلى الفلسفة ؛ وصحيفة *le Giornale dei Letterati* كانت تعوزها الحيوية واتساع الأفق ؛ وصحيفة *Acta Eruditorum* فى ليبزج كانت ثقيلة بالغة الصعوبة : والخلاصة أنه كان يوجد محل شاغر . وها هى ذى الصحف المرتقبة تظهر الآن : تظهر فى هولاندا . فى شهر مارس عام ١٦٨٣ «أخبار جمهورية الأدب» *Nouvelles de la République des lettres* لبيير بايل ؛ وفى شهر يناير عام ١٦٨٦ «المكتبة العالمية التاريخية» *La Bibliothèque universelle* لجان لكلير ؛ وفى شهر سبتمبر عام ١٦٨٧ «تاريخ مؤلفات العلماء» لباناج ذى بوفال Basnage de Beauval . ثلاث صحف محررة بالفرنسية ، كانت تبحث عن قراء أوربيين .

ولم يطل الانتظار حتى وجد القراء يا للقلق الذى ينتهب المؤلفين ، عندما

يفكرون فى أن صحيفة ستجود لهم أو ستضن عليهم — كما تشاء — بالمجد الذى يجتاز كل الحدود ، المجد الذى يسرى فى كل البلاد ، المجد العالمى ! أى مؤلف لم يتمن معرفة الحكم عليه ؟ من منهم لم يلهج لسانه بالشكر ، إذا اعتقد أنهم قدروا فضله ؟ ومن منهم لا يحتج إذا اعتقد أنهم حطوا من شأنه ؟ — « لدى من الأسباب ما يدفعنى إلى الشكوى يا سيدى ، من الطريقة غير الشريفة التى تتكلمون بها عنى فى عدد « أخبار عن جمهورية الأدب » شهر يوليو . . . لا تنتهكوا مبادئ القانون ، احتفظوا بمقاييس الشرف فى صحيفتكم ، وتشربوا مبادئ المحبة المسيحية . . . (١) » — أو : « انهالت الطلبات على كتابى منذ ما كتبتم عنه فى « أخبار » *Nouvelles* ديسمبر ؛ لقد لقى التقدير سلفاً لدى علمائنا الذين يعتقدون أنه لم يوجد الرجل الذى يفوقكم نفاذاً إلى جوهر كتاب ليتفهمه ويقدره حق قدره (٢) » — « منذ ما تشرفت بقراءة مؤلفاتكم ، أعدها كأحد معابد الخلود المقدسة ، حيث لا يشغل مكان إلا باعتناء كبير ، تدعمه أهلية كبيرة . . . (٣) » غير أنه ما من نداء أشد تأثيراً مما وجهه « فيكو » Vico ذات يوم من نابولى إلى (جان لى كلير) : إن الناس لم يقدروه فى نابولى حق قدره ، ولكن إذا شاء جان لى كلير ، فسيكون اسم فيكو علماً فى كل أنحاء أوربا (٤) .

إن النور يشع علينا الآن من الشمال . . . وفى الشرق أيضاً تغيرات قيمة تعتمل . فبولندا التى أمضها الكفاح ، وأرمضها الاسراف فى البطولة بعد أعمال « سوبيسكى » الذى حاز إعجاب كل أوربا ، تضنيها الانقسامات الداخلية . ولقد طالما علمت سوسكو المدنية الأوربية : كانت تؤثر فى جاراتها الخشنة بفضل آدابها ،

---

(١) من الأب دى فيل إلى بيير بايل ، ٣١ اغسطس ١٦٨٦ . L'abbé de Ville à Pierre Bayle. Dans le *Choix de la correspondance inédite de Pierre Bayle*, publié par Emile Gigas, Copenhague, 1890.

(٢) من فرنسوا برنييه إلى بيير بايل ، ٢٨ فبراير ١٦٨٦ .

(٣) ديتس بابن Denis Papin إلى بيير بايل ، ٢٦ يونيه ١٦٨٥ .

(٤) نيكولينى : خطاب من فيكو إلى جان لى كلير . مجلة الأدب المقارن ، ١٩٢٩ ص ٧٣٧ .

E. Nicolini, *Due lettere inedite di G. B. Vico a Giovanni Le Clerc. (Rev. de litt. comparée*, t. IX, année 1929, p. 737).

وعلومها ، وفنونها الجمية ، ونظرياتها السياسية ؛ إلا أن موسكو أخذت تبحث عن نماذج أخرى . هذا بينما نهاوعظمة السويد ، وتكون « بولتافا » ، آخر ملحمة حربية لشارل الثانى عشر . وهكذا تفارق الشخصيات الرئيسية المسرح لتأخذ مكانها شخصيات أخرى . تواترت الأخبار فى باريس — دون أن يلقى الناس إليها كبير اهتمام فى بادئ الأمر — أن فردريك الثالث ، منتخب براندنبورج ، استولى على العرش فى ١٨ يناير من عام ١٧٠١ فى كونجسبرج تحت لقب فريدريك الأول ملك بروسيا . وترى ماذا يحدث فى روسيا ؟ إن أحد أولئك الأدواق الذين يدعونهم قياصرة ، يريد أن يجعل من تلك الكتلة الآسيوية قوة متمدينة ؛ ويلتمس الدروس فى ألمانيا وفى المجر وفى هولاندة وانجلترا وفى فرنسا ، حتى إن موسكو تتبدل من عام إلى عام : تبدلا عاماً فى الأخلاق والعادات ، والبدع ، وفى أصول الثياب ؛ إن رحالة هولاندياً يدعى كورنيلوس فان برون ، يستشف ببصيرته النفاذة هذه التبدلات ، فيسرع فى رسم الملابس المحلية لكى يحتفظ لها بالذكرى : « بما أن هذا التبدل يستطيع أن يمحو كل شئ مع الزمن ، حتى ذكرى الملابس المحلية القديمة ، فقد رسمت ثياب الفتيات على القماش . . . » إن الشعوب القديمة تتعجب ، وتعجب بالقوام الماثل الذى يتبدى فيه بطرس الأكبر ، امبراطور الروسيا .

ولكن ظهور هاتين القوتين العظيمتين لا يتحقق إلا بالمستقبل : فان بروسيا والروسيا لن تعملا فى ميدان الفكر إلا بعد ذلك الوقت . أما فى هذه الآونة فالواقع الأساسى هو التالى : إن سيادة الفكر لم تعد لاتينية محضة ؛ إن انجلترا تطالب بتقسيم النفوذ ؛ إنها تعى قيمتها ، وتنادى بمجدها الذاتى ، بل هى تشعر نحو اللاتينيين من بورتغاليين وإيطاليين واسبان وفرنسيين ، باحتقار تحاول عبثاً أن تخفيه ؛ إن هم فى نظرها إلا عبيد . يمتدح شافتسبرى السياسة الانجليزية فيقول : « أما نحن البريطانيين فلدينا — شكراً للسماء — فكرة أصح عن الحكومة ، فكرة ورثناها من تقاليد عريقة فى القدم . إننا ندرك فكرة الشعب وفكرة الدستور ، ونعرف نظام السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية .. وإن المبادئ التى نستنبطها من ذلك لبديهية كمبادئ الرياضيات . وهذه المعرفة التى تزداد تدريجاً ، تبين لنا يوماً فيوماً ، قيمة « الادراك السليم » فى ميدان السياسة ، ولا بد من أن يصل بنا ذلك إلى إدراك قيمته فى مجال الأخلاق ،

التى هى أساسها »(١) . بينما يشيد « أديسون » فى موازنته بين انجلترا و إيطاليا بفكرتها عن الحرية : « ما أجملك يا إيطاليا ! . . . لكن ما جدوى بسمات الطبيعة ، وسفاتن الفن ، بينما يسودك الطغيان والظلم ؟ إن السكان التعساء يتطلعون بغير طائل إلى البرتقال الذى يتلون بلون الذهب ، و إلى الحب الذى يزكو ويطيب ، ويشمون عبثاً أريج الريحان الذى يتضوع : إنهم يموتون جوعاً وسط حقولهم الخصبة ، و يموتون عطشاً وسط كرومهم الوارفة . . . إيه أيتها الحرية ! إنك تجعلين البؤس سعادة ، أنت التى تعطين للشمس بهاءها ، وللنهار لذته ومتعته . إن الحرية إلهة انجلترا ، التى لا تحسد مزايا إقليم مناخه أصلح للانسان ، فانه يقتضيها ثمناً غالياً . إنك تجد الحرية على صخورها العارية الجرداء . فليحب الآخرون القصور ، واللوحات ، والتماثيل ؛ أما واجب انجلترا فهو رعاية مصير أوربا ، وتهديد ملوكها الزهوين ، والاصغاء إلى شكاة جيرانها التعساء . . .(٢)

قال دانيل لاروك « كلما رأيت الانجليز ازداد إعجابى بهم ؛ إنهم ، فى العموم ، يفوقوننا فى كل شئ . »(٣) إن لهم على الأمل قيمة وحساباً ؛ إنهم على الأقل يؤيدون قوتهم ؛ إنهم على الأقل يمثلون فكراً جديداً . — ترى أى فكر ؟

---

(١) شافتسبرى ، ١٧٠٩ *Freedom of wit and humour*

(٢) أديسون : خطاب من ايطاليا إلى الرايت أونورابل شارلس لورد هاليفاكس ، ١٧٠١

Addison, *A letter from Italy, to the right honourable Charles lord Halifax*, in the year 1701.

(٣) دانيل لاروك : رسالة الى بيير بايل ، ١٢ يوليو ١٦٨٦ . Daniel Larroque à Pierre Bayle, 12 juillet 1686

الفصل الرابع

الأتورودكسية [1]

حدث فى عام ١٦٧٨ أن دخل «بوسويه» Bossuet فى مناقشة مع القسيس البروتستانتى «كلود» Claude ، أثارتها مدام (دى ديراس) Mme. de Duras التى تتردد بين المذهب البروتستانتى الذى توشك أن تتركه ، وبين المذهب الكاثوليكى الذى تريد أن تعتنقه ؛ وكان الزعيمان يتواجهان ، ويجاهدان خطوة فخطوة ، من جهة لاستلاك روح ، ومن جهة أخرى فى سبيل حقيقتهما ، وإيمانهما . فلما وصلا إلى حقوق الضمير الفردى ، بدأ بوسويه يضيق الخناق على كلود : — إلى أى مدى تصل تلك الحرية التى يطالب بها السادة دعاة الكنيسة المجددة ؟ أليس لها أى حدود ؟ أكل فرد إذن ، كل امرأة ، كل جاهل مهما كان ، يستطيع أن يعتقد ، ويجب أن يعتقد ، أنه يمكنه أن يدرك كلمة الله أكثر من مجمع بأجمعه ، ولو اجتمع من جهات العالم الأربع ، وأكثر من باقى الكنيسة ؟ فأجاب كلود : نعم إنه لكذلك (٢) .

---

(١) الأتورودكسية Hétérodoxie عكس الأورثوذكسية ، والأرثوذكسية هى موافقة الاعتقاد الدينى السائد . [المترجمان]

(٢) بوسوية : محادثة مع السيد كلود تتعلق بعصمة الكنيسة ، عام ١٦٨٢ ويشرح كلود أسبابه فى كتابه « رد على كتاب السيد أسقف مو Monsieur l'Evêque de Meaux المعنون محادثة مع السيد كلود » ١٦٨٣ ، ص ٤٨٥ فيقول : يقول ذلك الأسقف إنه — بحسب ما قلنا — فكل فرد مهما كان جاهلا يجب عليه أن يدرك كلمة الله أكثر من المجامع العالمية ، ومن كل الكنيسة بأجمعها ؛ وهذا القول يؤخذ على محملين : أولهما أن كل فرد مهما كان جاهلا ملزم بأن يعتقد أنه يدرك كلمة الله أكثر مما تدركها المجامع العالمية الحقيقية المكونة من قوم من الأخيار الأبرار ، من رجال أتقياء ، علماء حكماء ، مجتمعين باسم المسيح . وثانيهما أن كل فرد مؤمن ، وهبه الله الروح القدس ، ملزم بأن يعتقد أنه يمكنه أن يدرك كلمة الله أكثر مما تدركها المجامع العالمية الكاذبة ، المكونة من أشخاص دنيويين =

عندما انتقل الخلاف الأبدى بين السلطة والحرية إلى ميدان الدين ، بلغ عنفوانه ، إذ تعارضت أشد التعارض وأقساه ، المبادئ التى على الناس أن يختاروها لتوجيه الحياة . كلود وبوسويه ، بطلا قضيتين متعارضتين ، عظيمان بين العظماء ، يدافعان أمام روح عليها أن تقرر نصيبها بنفسها ، أمام فرنسا ، أمام أوربا — الأول عن حق التفكير بلا إلزام ، عن حق الفحص بغير تقييد أو تحديد ، عن حق تغليب أحكام الضمير الفردى على الارتضاء العام ؛ بينما يدافع الثانى عن إرادة التفكير المشترك ، عن السعادة فى طاعة نظام قد قبله الناس قبولا نهائياً ، وعن ضرورة الاعتراف بسلطة لتسيير ركب الحياة .

فى ذلك التاريخ ، كان كلود يدافع عن قضية تبدو كأنها خاسرة ، وبوسويه يدافع عن قضية ظافرة . كانت الأثوردكسية hétérodoxie (معارضة الأورثوذكسية) تتقهقر ، وكان مذهب لوثر الألمانى Luthéranisme يضعف ويتعثر ، باعتراف زعماء البروتستانت ، وكانت البروتستانتية الانجليزية فى خطر ، يهددها الكاثوليك أعوان أسرة ستيوارت من جهة ، والمخالفون من كل لون من جهة أخرى . كان أعداء الانقلاب الدينى La Réforme (١) قد استردوا شطراً كبيراً من وسط أوربا ، ولم يكن الجيزويت أنصار النظام والطاعة ، أعظم مما كانوا فى ذلك الحين .

= نفعيين ، منافقين ، أى من أشخاص لم يمن الله عليهم بالروح القدس ، وأكثر مما يدركها كل أولئك الدنيويين مجتمعين ، وإن كانوا يخلعون على أنفسهم كذبا اسم الكنيسة .

أما المعنى الأول فهو عبارة عن ادعاء محض يرفضه البروتستانت . وأما المعنى الثانى فيتضمن حقيقة من ، البداهة والوضوح ، بحيث لا يستطيع بوسويه أن ينتصر عليها بأية حال .

(١) *La Réforme* : حركة دينية بدأت فى أوائل القرن السادس عشر وحطمت الوحدة الكاثوليكية بخروج بلاد شمال أوربا على الطاعة التقليدية للكنيسة ، وللبابا على الخصوص . وكان جان هوس من المبشرين السابقين بهذه الحركة التى عززتها الهزة العميقة التى شعرت بها العقول نتيجة للنهضة . وفى ألمانيا كان بطلها مارتن لوثر الذى التجأ إلى فارتبورج ومن هنالك نظم الحركة ضد الكاثوليكية الرومانية . وفى ١٥٣١ جاء جان كالفين إلى سويسرا عقب فراره من فرنسا ، يبشر بالمذهب الجديد ، الذى ينكر ألوهية المسيح ولا يعده إلا نبيا وينصح بالرجوع إلى المسيحية الأولى ، ومبادىء العهد القديم ، وينكر التقاليد الدينية والمراسيم وينسب للسلطة مصدرا ديموقراطيا . واشتهر الفرنسيون التابعون لكالفين باسم الهوجونوت . وهذه الحركة يتكلم عنها الكاثوليك على أنها «انقلاب» ويتكلم عنها البروتستانت بحسبانها إصلاحا . [المترجمان]

إن فرنسا ، أكثر البلاد منطقاً ، وأقواها إرادة وتصميما إذا تعلق الأمر بالأفكار ، قد افتتنت بهذا الميل إلى الوحدة الكاملة . إن ملكاً عظيما أحال المسألة السياسية المعقدة إلى مبدأ بسيط يشعر بشئ من الألم والضيق ، ويعتقد أنه لم يتم رسالته بعد ، طالما يبقى فى أعماق القلوب انقسام وتشتيت ، وطالما تبقى أقلية تتبع دينا عاصياً . كان الحلم الذى يراود خيال لويس الرابع عشر : تنظيم كل شئ حتى العقيدة ، وتوحيد كل شئ حتى الايمان ، والقضاء على البروتستانتية حتى لا تبقى إلا كنيسة واحدة فى دولة قد نظمت أحسن تنظيم . فحاول أن يقضى على الدين الذى يزعمونه مصلحاً ، بالمجادلة والهداية فى أول الأمر ، ثم رويداً رويداً بالقوة . كان البعض يقولون له ، وكان يجد رضا فى التصديق ، إن الانقلاب الدينى الذى خرب فرنسا فيما سبق بالحديد والنار ، لم يجرد من السلاح ولم يضعف فحسب ، بل خارت قواه ، واقترب من نهايته المحتومة . كتب الأب مامبورج le P. Maimbourg فى مؤلفه تاريخ مذهب كالفين *Histoire du Calvinisme* إنه لا تزال أمامنا خطوة أخرى «وحينئذ سيخمد قريباً ذلك الحريق المشئوم الذى جر على فرنسا كثيراً من التخريب ، والذى لا يتبقى منه اليوم إلا دخان طفيف . ولما كنا جميعاً يربطنا فى الملكية المسيحية قانون واحد يلزمنا جميعاً بالخضوع لملك واحد جاد به الله علينا ، فانى كبير الأمل فى أن يربطنا أيضاً إيمان واحد . » ولما كانت فرنسا تعطى مثالا يحتذى ، ولما كانت نموذجا لأوربا به يقتدى ، أفلا يفكر الناس أن إنجلترا قد ترعوى وتهتدى إلى الكاثوليكية بدورها ؟ كان الأب مامبورج يستشف ذلك الانقلاب ! — « لى أمل أنه ذات يوم ، سيبدد الله بنور نعمائه الظلام الذى قد نشره انشقاق مشئوم ، أعقبه كفر ، على انجلترا منذ قرن أو يزيد ، وسيضئ عيون الانجليز من جديد بشمس الحقيقة التى ستجمع كل العقول فى طريق الايمان ، الذى علمهم إياه القديس جريجورى الكبير » . هكذا كان يفكر الجميع ، إنه بفضل « الملك المجيد المسيحى جداً » سيرد إليهم الكساء الجميل الذى كان يرتديه المسيح ، وبذا يتحقق انتصار الأورتودوكسية .

لما فسخ لويس الرابع عشر فى شهر أكتوبر ١٦٨٥ أمرنانت ، كان فى ذلك مطابقاً ومطبقاً لمبادئه . إلا أنه لم يكن مخلصاً للروح المسيحية ؛ فانه أخطأ فى تقدير طبيعة الضمير البشرى . إن الضمير البشرى لا يحتمل الشدة ،

وهذا سر نبله وعراقته ، سر عظمته . إن شدة الطغيان لا تدفعه إلا إلى العصيان . لذلك قلما تجد من الأحداث ما كان أحسم وأحفل بالنتائج التى تؤثر فى المستقبل مثل فسخ أسر نانت . وعلى قدر ما نستطيع أن نتوقف عند تاريخ ، لنسجل حركات التفكير ، فانه لمن الصواب أن نقول إن سنة ١٦٨٥ تسجل أوج انتصار الهجوم على الانقلاب الدينى ، أما بعد ذلك فيأتى الجزر .

***

أما فى الخارج فيا للضجة التى تعالت ، ويا لصيحات القتال التى دوت ! إن الثورة الانجليزية التى نشبت فى عام ١٦٨٨ لم تكن سياسية فحسب ، بل دينية أيضا . وإن انتصار وليم أورانج لم يكن فوزاً للبرلمان فحسب ، بل كان ظفراً للاصلاح الدينى أيضاً . ولم يمجد الناس فى شخصه الذائد عن حقوق الشعب فقط ، بل منقذ الدين ، بطل البروتستانتية . كذلك لقد كان لويس الرابع عشر ، فى نظر بلاد الشمال قاطبة العدو الأكبر ، عدو الايمان الحر ؛ فكانوا يرددون أن فعلته كانت الدليل القطعى الظاهر ، والرمز البين لحكمه الظالم ، وجوره ووحشيته وجبروته ، واحتقاره لحقوق الانسان ؛ إن ذلك الميكيافيلى Machiavel (١) ، ذلك الوحش (٢) ذلك الدجال Antéchrist (٣) ، لا يكتفى بأن يفرض على العالم قوة السلاح ، ولا يقنع بفتوحاته وسياسته القائمة على المداهنة والنفاق ، بل يصبو إلى السيطرة على الأرواح ، ويروم إحلال قوانينه محل نداء السماء ! وقد بلغ من قوة هذه المذمة أن وصل صداها إلى العالم الجديد .

---

(١) ميكيافيللى : صاحب كتاب «الأمير» و«فن الحرب» يتلخص مبدؤه فى أن الغاية تبرر الوسيلة وقد صار عنواناً للرجل الذى لا يعرف وخز الضمير ، والذى يخرق العرف ويخرج على الأخلاق فى سبيل تنفيذ مآربه السياسية ، ١٤٦٩ - ١٥٢٧ . [المترجمان]

(٢) *La Bête de l'Apocalypse*: الوحش المذكور فى رؤيا يوحنا بالانجيل « ثم وقفت على البحر . فرأيت وحشاً طالعاً من البحر له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى قرونه عشرة تيجان وعلى رؤوسه اسم تجديف ، والوحش الذى رأيته كان شبه نمر وقوائمه كقوائم الدب . وفمه كفم أسد . . . » (انجيل يوحنا ، الاصحاح الثالث عشر) . [المترجمان]

(٣) الدجال L'Antéchrist : أو النبى الكذاب المذكور فى رؤيا يوحنا اللاهوتى سالفة الذكر ، الذى سيظهر قبل يوم القيامة ويغرق الأرض فى الاجرام والدم ، حتى انتصار المسيح . [المترجمان].

يقول بنيامين فرانكلين إنه قد سمع في صباه ، قوما في كنيسة في فيلادلفيا يلعنون « ذلك العجوز الرجيم ، مضطهد شعب الله ، لويس الرابع عشر (١) » أي بذرة تنبت البروتستانتية في أوربا ، أولئك الفرنسيون المطرودون من فرنسا ! كانوا يشهدون العالم على ماعانوا من عذاب وما حاق بهم من سوء . لقد ظلوا ستين وسنين يطاردون كالوحوش ، ولما كانوا قد رفضوا أن ينكثوا اليمين ، فقد عوملوا معاملة المجرمين . وكانت قلاع المعارضة لا تقتصر على جنيف و برلين ، وبودابست بل كان هناك أيضاً ملجأ هولاندة وانجلترا حيث عشرات الكنائس وآلاف المؤمنين . وكان أولئك الفرنسيون الأقوياء ذوو العزم الشديد ، الذين اعتادوا المقاومة والجهاد منذ أمد طويل ، يضعون في خدمة الاصلاح الديني » قوات عديدة : هيبة أولئك الذين يحتملون العذاب في سبيل الايمان ، وبداهة الظلم المبين الذى عانوه ، وقوة جدالية كلها حياة وحيوية ، وقدرة طائفتهم على الاقناع ، وسخطا جنونياً يلازمهم مدى الحياة ثم يورثونه نسلهم من بعدهم .

كم تغير صوت القسيس كلود ، بعد ما فسخ لويس الرابع عشر الأمر المشهور ! يعلن كلود أنه قد مضى الزمن الذى كان المرء يستطيع فيه أن يقارع الدليل بالدليل ، والسبب بالسبب ، و إذ لم يكن الظفر إلا في سلامة النية . فانظر كيف خدعوه ، ومن معبده اقتلعوه ، وكيف أجبروه على أن يأخذ طريق المنفى في بحر أربع وعشرين ساعة . يا للذكريات الأليمة ! لقد أقبلت الجنود ، وطوقت الطرق ومنافذ المدينة ، حيث نصب الحراس ، ثم أخذوا يتقدمون وسيوفهم مشرعة صائحين : « القتل . . . ! القتل ! أو الكثلكة ! وبين صيحات السباب والانتحاب ، أخذوا يشنقون الناس ، رجال ونساء ، من الشعر ومن الأقدام ، على أسقف الغرف أو منحنيات المداخن . وكانوا يعذبونهم باستنشاق دخان القش المبلول ، وينتفون شعر اللحى والرءوس ؛ وكانوا يلقون بهم في نيران أشعلت خصيصاً لهذا الغرض ، ولا يخرجونهم منها إلا نصف مشويين ، وكانوا يغلونهم بالحبال ، ثم يغطسونهم في الآبار ، ولا يخرجونهم منها إلا بعد وعد بتغيير الدين . . . » هل كان ملك فرنسا يجهل أن الايمان ينزل من

(١) مؤلفات بنيامين فرانكلين ، طبعة شمت ، الجزء السادس ص ٨٦ . *Writings of B. Franklin*, éd. Smith, t. VI

السماء ولا صلة له بسياسة البشر ؟ وأن وسائل الالزام لا تؤدى إلا إلى خلق الكفار أو المنافقين ، وأنها تزيد المخلصين صلابة وثباتا يتغلبان على كل عذاب مبين ؟ ألا يدرك أن فى استعمال تلك الأساليب خروجا على قانون دول أوربا؟ وأنه بخرقه وعد أسلافه والثقة العامة هذا الخرق الفاضح ، لن يثق الناس فيما بعد بوعد يقطعه أو ميثاق يبرمه (١) !

هكذا أخذ عدد كبير من قساوسة البروتستانت يستنزلون اللعنات ويبكون بكاء اليهود على شواطئ بابل (٢) ! نذكر منهم جاك باناج ، جاك سوران ، J. Saurin ، إيلى بنوا Elie Benoist ، اسحق جاكلو Isaac Jaquelot . ولكن إذا أردنا أن نعرف إلى أى حد وصل الغضب العاصف ، فينبغى أن نصغى قليلا إلى كلام بيير جوريو Pierre Jurieu . كان مفطوراً على الشغف بالمجادلة ، ولكنه كان يتجمل بالصبر طالما هو يبقى على أرض فرنسا : فلما نفى ، جن جنونه . وأخذ يقول فى هذيان المحموم ، ما يقوله الآخرون فى أسلوب رزين ؛ وكان يوقع نفسه فى الخطأ بتهوره وتخريفه : إلا أنه يلتمس له العذر فقد كان مدفوعاً بتلك المشاعر التى لم يتفرد باحساسها . كان يقف كالحارس من فوق الأسوار ، محتجا ضد البابوية ، ومجمع ترانت ، وممتدحا الاصلاح الدينى ، ومشجعاً المخلصين على المقاومة ، داعياً إياهم ألا يذعنوا للقوة ، باعثاً إليهم برسائل للارشاد ، كما كان يفعل رهبان الكنيسة القديمة مع المسيحيين الواقعين تحت نير الاضطهاد . وكان يتنبأ ، قائلا أنه لن يبعد اليوم الذى ينتهى فيه حكم « النبى الكذاب » وإن مملكة الشيطان ستؤول إلى الدمار ، وإن الكنيسة الحقة ستستعيد تاج المجد والفخار . سينتهى الأمر فى عام ١٧١٠ أو على الأكثر فى عام ١٧١٥ ، إذ

---

(١) شكوى البروتستانت المنفيين من مملكة فرنسا ، ١٦٨٦ .

(٢) يقصد تشبيه البروتستانت المطرودين من فرنسا باليهود المسبيين إلى بابل عقب غزو ملك الكلدانيين لأورشليم : «فكانوا يهزءون برسل الله وزذلوا كلامه وتهاونوا بأنبيائه حتى ثار غضب الرب على شعبه حتى لم يكن شفاء . فأصعد عليهم ملك الكلدانيين فقتل مختاريهم بالسيف فى بيت مقدسهم . ولم يشفق على فتى أو عذراء ولا على شيخ أو أشيب بل دفع الجميع ليده . وجميع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة وخزائن بيت الرب وخزائن الملك ورؤسائه أتى بها جميعا إلى بابل وأحرقوا بيت الله وهدموا سور أورشليم وأحرقوا جميع قصورها بالنار وأهلكوا جميع آنيتها الثمينة . وسبى الذين نجوا من السيف إلى بابل . . . » لعهد القديم ، أخبار الأيام الثاني ، الاصحاح ٣٦ . [المترجمان]

يعود البروتستانت إلى فرنسا ظافرين . ولم يعدم من يصدقه ، ويتبعه ، ويناقش مواعيد ذلك العود السعيد : فنحو عام ١٧٢٠ أو ١٧٣٠ سيسترجع المنفيون أورشليم . — . ولم يكتف بما أبداه من صياح وجنون وهذيان ، بل التحق بخدمة منتخب براندنبورج وملك انجلترا ضد فرنسا ؛ ودبر عصيان البروتستانت فى مختلف أنحاء المملكة ، ونظم حركة جاسوسية ضد بلاده ، فكان يرسل الجواسيس ويستقبلهم ويدفع أجورهم . وانزلق جوريو من حقد إلى حقد ، حتى سقط إلى هذا الدرك ، الذى بقى يمثله إلى أن مات فى ١٧١٣ .

***

إن الروح الحقيقية فى الصحف الفرنسية فى هولندة ، الروح التى نسعى إلى شرحها بالذات ، هى أنها غير موافقة للدين القائم ، إنها تنادى بصوت الأثورودكسية .

لا شئ فى صحيفة « أخبار جمهورية الأدب » يتعلق بالمسرحيات أو القصص أو الأشعار ، ومثلها فى ذلك « المكتبة العالمية » . وإذا كانت صحيفة « تاريخ مؤلفات العلماء » قد شرعت تخصص حيزاً للأدب ، فهى إنما تفعل ذلك فى انطواء وخجل . حقا ، إننا سنرى تقدما ، وسنرى الاستعلام يزداد على مر السنين ، بازدياد ثروة انجلترا من الأدباء ذوى الموهبة والعبقرية ، بيد أن الذى كان يهم تلك الصحف قبل ١٧١٥ لم يكن الأدب بل التفكير . إن هؤلاء الصحفيين من خريجى المدارس الأكاديمية البروتستانتية ؛ فلا يكادون يسمعون أحداً يتحدث عن الأخلاق أو المذاهب حتى يبلغ بهم التأثر كل مبلغ ، فتلك هى اللغة التى درسوها فى مجامعهم ، وبذا يتذكرون علومهم وتفكيرهم ، ويجدون علة كيانهم leur raison d'être . فيشرعون اليراع وينكبون على الكتابة فى تلك الموضوعات المألوفة لهم . ولا يذهبن بنا الظن إلى أنهم هواة فن ، يبادرون إلى كشف روائع الجمال ليقدروها كفنانين ، فما كان لهم بالجمال اهتمام . أما ما يثير فيهم الوحى والالهام فهو روائع أرنو ونيكول M. Arnaud, M. Nicole وتفسير ريشارد سيمون ؛ وفيما يخص الانجليز أبحاث اسحاق بارو Barrow ، وتوماس براون ، جلبرت بورنت G. Burnet ، وهنرى دودويل Dodwell . وبينهم وبين أولئك المؤلفين قياس مشترك : إنهم يفهم بعضهم بعضا ، ويتفاهمون حتى فى غمار المجادلة الشائقة ، خبزهم اليومى . فمذهب

جانسينيوس(١) أو مذهب مولينا (٢) ، الاختيار أو القدرية ، والعناية الالهية أو القضاء والقدر ، ذلك كان مجالهم . وقاعدة «الوحدات الثلاث» (٣) تبدو لهم أقل أهمية من التفسير الفلسفى للعالم . وهم ليسوا جوابى أرض بفطرتهم ، بل ينتمون إلى طائفة أخرى غير طائفة السائحين والشاردين : طائفة ذات همة وحمية ، تضم مفسرى الكتب المقدسة ، وآباء الكنيسة ، والملحدين ، وفلاسفة النهضة ، وقادة الانقلاب الدينى ، وقضاة محاكم التفتيش ، وأعضاء مجمع ترانت ، والأحياء الذين يهاجمونهم ، كالأب ماسبورج ، وفرانسوا لامى ، وبوسويه : طائفة اللاهوتيين .

كانت المهمة الأولى لصحفيى هولاندا ، أن يعملوا على احتفاظ الروح التى تحرك الاصلاح الدينى بقوتها وحيويتها . إنهم يواصلون عمل آبائهم الهوجونوت، مضاعفين إياه ، ومضفين رنة جديدة عليه ، بيد أنه لا فرنسا ولا روما يخفى عليهما ذلك ، وبالرغم من محاولات بايل لاجتذاب السلطات ، بل حتى مداهنة السلطة الملكية ، فقد صودرت صحيفته فى باريس وحرست فى روما . هيا ننظر عن كثب إلى جان لى كلير Jean Le Clerc مؤلف «المكتبات» الثلاث : إنه رجل لا يفرغ . لا تموت صحفه إلا لتبعث من جديد ، ويتغير الناشرون وهو يستمر ويسير ، تتراكم الكتب فيجد فى ذلك سعادته ، ويشكو التعب ويجد فى ذلك متعته . ويضيف إلى إنتاجه الصحفى كتلة من المؤلفات ؛ إنه يمثل نموذجا ، معهوداً فى ذلك الوقت ، نموذج العلماء الذين يقضون الليل فى الكتابة ، بعد ما كتبوا طوال النهار : وإلا فكيف يتركون مثل هذا العدد من الصفحات ، إذا لم يكن الأمر كذلك ؟ إن له مؤلفات عميقة فى العلم ،والنقد، والتفسير ، والفلسفة ، والتاريخ . وقد طبع ونشر إيرازم وجروسيوس ، وترجم

---

(١) مذهب جانسينوس : أنظر بيان ص ٣٩ .

(٢) لويس مولينا : يسوعى اسبانى ولد ١٥٣٥ فى كوينكا صاحب المذهب المولينى الذى يقول بالتوفيق بين النعمة الالهية والاختيار وهو مذهب حرمته الكنيسة. [المترجمان]

(٣) أى وحدة الحركة والزمان والمكان : قاعدة الأدب الكلاسيكى الفرنسى التى تقتضى أن تمثل المسرحية : ١) موضوعا أساسيا واحداً ؛ ٢) وتحدث فى مدى يوم واحد ؛ ٣) وفى بناء واحد أو على الأقل مدينة واحدة .

الكتاب المقدس . هذا فضلا عن أعمال أدبية مختلفة ، من كل نوع ، حتى مراجعة قاموس موريرى . . .

ولكنه لم يتغير على طول الطريق الحافل بالنشاط . لم يكن جان لى كلير رجل أدب ، فان أسلوبه خال من كل المحسنات ، ويبدو كأنه لا يلتفت أبداً إلى جرس الكلمات ، قانعا بغزارة المعلومات . إنه يعلم ويؤثر . لقد درس فى جنيف حيث درج ، والتحق بجامعة سومير ، وخدم فى كنيسة فالون ، ثم فى كنيسة سافوا بلندن ؛ وأخيراً أقام فى أمستردام حيث كان خلال سبعة وعشرين عاما مدرسا للعلوم الفلسفية والانسانية وللغة العبرية ، بجامعة أرمنيوس فى هذه المدينة. « لقد درس ثلاثة أشياء : الآداب والفلسفة واللاهوت . . . » وأعنى بالآداب دراسة اللاتينية واليونانية والعبرية ، أى معاونات الفلسفة واللاهوت . ذلك دأبه فى حياته ، وفى كتبه ، وفى مجلاته : يستغل كل ظرف ليتناول المسألة الدينية ويشرحها حسب طريقته . « كان يجهل سر اجتذاب الاعجاب ، وسر التعليم ، وهو مايفوق العلم بمراحل . . .(١) » . ذلك لأنه لم يجر وراءه ، إذ أنه لم يكن يريد — على حد قوله فى مقدمة مؤلفه « المكتبة القديمة والحديثة » — أن يسلى القارئ ، بل أن يعلم الحق والفضيلة .

وما كان الأمر يختلف فيما يخص الكتب التى تنشرها هولاندا بوفرة ؛ « لا يوجد فى الأرض كلها إلا عشر مدن أو اثنتا عشرة مدينة يطبع فيها عدد وفير من الكتب . ففى انجلترا : لندن وأكسفورد ، وفى فرنسا : باريس وليون ، وفى هولاندا : أمستردام وليدن وروتردام ولاهاى وأوترخت Utrecht ، وفى ألمانيا : ليبزج : Leipzig ، وليس هناك غيرها تقريباً (٢) . » خمسة مراكز للطباعة فى هولاندا ، بينما لم يكن فى انجلترا وفرنسا إلا مركزان فى كل ، تلك لعمرى نسبة رائعة . وكان فى أمستردام على ما يقال ، أربعمائة طابع أو ناشر. ولم يكونوا هولانديين فحسب ، بل منهم الألمان ، والفرنسيون ، والانجليز ،

---

(١) فولتير ، « عصر لويس الرابع عشر » ، جدول الكتاب الفرنسيين Voltaire, *Siècle de Louis* XIV .

(٢) شهادة مؤرخة ١٦٩٩ ، يذكرها ه . ج . ريسنك H. J. Reesink (انجلترا والأدب الأنجليزى فى المجلات الفرنسية الثلاث الأقدم فى هولاندا ، ١٩٣١ ، ص ٩٣) *L'Angleterre et la littérature anglaise dans les trois plus anciens périodiques français de Hollande*, 1931.

واليهود . وكان بينهم ذو والعقول الممتازة ، الذين لم يقتصر اهتمامهم على الناحية التجارية ، لكن كان بينهم أيضا المزورون المنتحلون . فان « صحيفة العلماء » المؤرخة ٢٩ يونيو ١٦٨٢ تحتج على « انتحال لبعض أصحاب المكاتب فى أمستردام ، يتعلق بتزوير فاضح » . وذلك لأنها لم تكن قلدت فحسب ، بل شوهت فى هولاندا أيضاً . فيحتج بايل فى عام ١٦٩٣ قائلا « ذلك نهجهم ، فهم لا يعطون شيئاً للمؤلف ، لا سيما إذا لاح لهم إمكان نشر الصورة فى باريس ؛ فهم يحتفظون بحق تقليدها هنا ، دون أن يكلفهم ذلك شيئاً بالنسبة للمؤلف . . . »

بتلك الوسائل ، كانت الكتب سريعة التكاثر : ما تجده منها فى أماكن أخرى ، وما لا تجده على الاطلاق . إن المنسوخات التى تتميز بشئ من الجسارة لم تكن لتجد ناشراً فى فرنسا ، إلا بفضل إغضاء السلطات ، الذى هو من طبع البلد ، وكان نشرها فى إيطاليا أشق وأصعب ، أما فى إسبانيا والبرتغال فكان المشروع سيئوسا منه تقريباً . وعلى العكس من ذلك كان الكتاب الذى تمنعه الرقابة وتصادره السلطات ، تتهيأ له فى هولاندا سبل الحياة ، ويجد الطابع والناشر الذين يهيئان له سبل الانتشار ، والاشتهار . قال فنيلون عندما أرسل إلى بواتو ليعظ المهتدين الجدد ، إنه ينبغى أن ننشر لهم بحوثا فى تقريظ الكاثوليكية ، مصورة بعلامة مزورة لمدينة من مدن هولاندا : فان تلك العلامة لابد أن توحى بالثقة إلى نفوس القراء ، الذين ما فتئوا متأثرين بالروح البروتستانتى . أما أن كاثوليكيا مثل أرنو يسمح لنفسه بطبع مؤلفاته فى هولاندة ، فهذا ما يراه جوريو إهانة ، بل خيانة ؛ فقد كان يرى هولاندة أرض القديسين ، قلعة الله ، التى ينبغى أن تبقى محرمة على البابويين ؛ فلتبق لفرنسا كتب الكاثوليكية ، ولتكن لهولاندة كتب الاصلاح . لذلك كان للمتحررين الفرنسيين حسابات جارية فى لاهاى : حيث حرية الفكر مكفولة : وحيث يتحرر المؤلفون من طغيان المبادئ السياسية والعقائد الدينية ، فلم يكن بد من أن يتخذ منها كل فكر حر منهلا ومورداً .

وكانت الكتب المحرمة والكتب المصادرة والكتب الملعونة تدخل فرنسا الكاثوليكية تحت حكم لويس العظيم ، بطريق التهريب ، رغم كل ما اتخذ على الحدود من تدابير . وكانت تخفى بين أمتعة المسافرين ، وتمر عن طريق مدن الشمال أو ثغور المانش ، حتى تصل إلى باريس ، فاحتج المدافعون عن

الأورثوذكسية ، كما كان متوقعاً . لقد عرف محررو « مذكرات تريفو(١) » *Les Mémoires de Trévoux* وكانوا خير حفظة عليها ، أن رقابتهم الساهرة كثيرا ما تنخدع . « عنوان مؤثر جليل ، وورق مصقول ، وحروف جميلة وصور لطيفة ، تلك زينة الكتاب ، وهي دائماً رائعة فى هولاندا . وإنه لشعار جميل وإن كان لا يدل دائماً على جودة البضاعة ، وذلك شأن ما يرد عن هذا البلد بطريق التهريب(٢) » . ويقول بوسويه Bossuet « أتانا من زمن قريب من هولاندا كتاب تحت عنوان : « تاريخ نقدى لأهم مفسرى العهد الجديد » *Histoire critique des principaux commentateurs du nouveau Testament* للقسيس ريشار سيمون R. Simon . وهو أحد الكتب التى لا تستطيع أن تلقى تأييداً فى الكنيسة الكاثوليكية ، وبالتالى لا تجد تصريحاً لتطبع بيننا ، ولذا فهى لا تستطيع أن تظهر إلا فى بلد يسمح فيه بكل شئ ، وبين أعداء الايمان . ومع ذلك ، فبالرغم من حكمة الحكام ويقظتهم ، فان تلك الكتب تتوغل بيننا رويداً رويداً ؛ إنها تستشرى ، فان الناس يتبادلونها سراً ، وما يجعلها جذابة مرغوبة ، هو كونها نادرة ، غريبة ، مطلوبة ، أو الأحرى كونها ممنوعة . . . (٣) »

ولم تنفرد هولاندا وحدها بنشر كتب عدائية ضد لويس الرابع عشر وضد روما ، فقد كانت سويسرا وألمانيا تنتجان مثلها ، ثم انجلترا حيث كثرت تلك الكتب ، لأن الانجليز ، كما يقول ريشار سيمون ، بحاث عظام فى ميدان الدين . حتى إن الأتوروذكسية أصبحت تكتنف فرنسا ، من جنيف إلى لندن . وكان الدور الذى أنيط بالهولانديين ، وأكثر منهم بالهوجونوت الفرنسيين اللائذين بهولاندا ، أن يدخلوا تلك المشاعر وتلك الأفكار المتمردة حتى قلب فرنسا نفسها .

وكان الشقاق يستفحل . قال فنيلون « يا له من حكم قاس بالانفصال ، أوقعه الله على الأرض فى القرن السابق ! فان انجلترا ، بتحطيمها رابطة الوحدة

---

(١) مذكرات تريفو : مجلة أدبية انتقادية أسسها اليسوعيون فى فرنسا (تريفو) لمجادلة ضد المدرسة الفلسفية. [المترجمان]

(٢) فبراير ١٧١٩ ، المادة الخامسة عشرة .

(٣) دفاع عن تقاليد الكنيسة وعن الآباء القديسين ، مقدمة (طبع لاشا ، ص ٨)
Défense de la tradition et des Saints Pères, Préface, Ed. Lachat, p. 8.

المقدسة التى تستطيع وحدها أن تكبح جماح العقول ، قد أوقعت نفسها فى وهم كبير . إن ألمانيا والدانمرك والسويد وشطراً من هولاندا ، فروع اقتطعها السيف المنتقم ، ولم يعد لها بالشجرة القديمة أى اتصال . . . (١)» . ولم يكن لفسخ أمر نانت من أثر إلا أن يزيد حكم الانفصال قوة و بريقاً . لقد سجل إحياء محالفة فكرية أخلاقية لن يبطل لها نشاط ، حتى عندما توقع جيوش أوربا عهد السلام . قال ليبنتز « الآن ، يواجه الشمال كله تقريباً جنوب أوربا ، إنه الشطر الأكبر من الشعوب الجرمانية فى مواجهة اللاتين (٢)» . والواقع أن الاصلاح الدينى ، الذى يبدو منهزماً فى فرنسا ، كان فى خارجها أشد قوة وأتم وحدة . ولقد قال بوسويه « إن الاصلاح الدينى الذى تدعونه ، إذا قدرنا القوة التى تسنده من الخارج ، لم يكن فى يوم من الأيام أكثر قوة ووحدة . إن كل الأحزاب البروتستانتية تتحالف . . . فى الخارج يبدو الاصلاح أعظم وأخطر مما كان فى أى يوم من الأيام (٣)» . الاصلاح الدينى أو مذهب كالفين على وجه التحديد .

ذلك لأن مذهب لوثر ، فى الواقع ، « منزو منعزل فى الشمال (٤)» ، فهو ينطوى على نفسه ، قانعاً بحرية محلية محدودة ، فانه ليس مقوداً نحو الفتوحات الكبيرة بفضل دولة منتصرة ، ولما كان ينقصه الطموح ، فانه تعوزه المرونة . هذا بينما مذهب كالفين ، ينتقل مع المجاترا من نصر إلى نصر . وقد نشر جون لوك فى عام ١٦٩٠ بحثين يؤيد فيهما تولى رجل مقاليد الحكم تأييداً نظرياً ، وهذا الرجل هو وليم أورانج الذى قد يعد أكبر ممثل لمذهب كالفين فى أوربا ؛ ولهذين البحثين مقصد هو أن يكونا القانون الجديد للسياسة الحديثة : وهما يستلهمان وحى جنيف(٥) ، الذى

---

(١) فنيلون : موعظة لمناسبة « عيد الظهور » ٦ يناير ١٦٨٥ ، Fénelon, *Sermon pour la fête de l'Epiphanie*.

(٢) ليبنتز : فى رسالة إلى بوسويه ١٨ أبريل ١٦٩٢ Leibniz, *à Bossuet*, 18 avr. 1692.

(٣) بوسويه : الاخطار الأول إلى البروتستانت ١٦٨٩ ، Bossuet, *Premier avertissement aux Protestants*.

(٤) الأب مابورج : ، تاريخ مذهب لوثر ١٦٨٠ ، ص ٢٦٨ ، Le P. Maimbourg, *Histoire du Luthérianisme*.

(٥) لأن جنيف — كما يذكر القارىء — كانت ملجأ لكالفين بعد فراره من فرنسا ، حيث أنشأ جامعة كبيرة لمذهبه . [المترجمان]

يشفان عنه بوضوح ، يزخرفهما سحر الانتصار الأخير . وقد كان أساتذة جون لوك وأصدقاؤه فى انجلترا وفى فرنسا وفى هولاندا من مذهب كالفين ، وكانت أفكاره و براهينه مستمدة من مطالعاته فى هذا المذهب ، وهو بالطبع يضاعف من قوتها بعدة مقتطفات وبيانات من الكتاب المقدس ؛ و إن رفضه الخضوع للتحكم والاستبداد ، بلا قيد ولا شرط ، لهو عين الرفض الذى واجهت به الجمعيات الكالفينية فى القرن السادس عشر ، الأساقفة والأمراء الظلمة . إن مذهب كالفين يمثل هنا حرية الضمير ، المنقولة إلى ميدان السياسة . حتى إن دخوله فى خدمة الدولة الانجليزية لا يسلبه هذه الميزة . إلى هذه الدرجة تبلغ حيوية الذكرى التاريخية للكفاح الذى واصله فى الدفاع عن مبدئه ، و إلى هذه الدرجة يتضح سوء استعمال السلطة الذى ارتكبه لويس الرابع عشر باسم الحق الالهى للملوك .

هنا أيضاً تتأيد ، وتظفر بأسباب المجد ، نتائج الاتفاقية التى سبق أن عقدت فى جنيف بين الرأسمالية والدين . ففى الوقت الذى تزداد فيه هيبة انجلترا التى تستولى رويداً رويداً على التجارة العالمية بعد هولاندا ، تزداد هيبة الدين ، الذى لا يخالفها بل يعزز نشاطها العملى . لأن الواقع أن الدين الكاثوليكى فيه على حد قول أحد المعاصرين ، نوع من القصور الطبيعى تجاه الشئون والأعمال ، بينما البروتستانت على النقيض ، يمتازون بحمية تعزز ميلهم إلى التجارة والصناعة ، ولا غرو فانهم يرون الكسل غير مشروع (١). ها هو ذا التاجر يسير ، سلبياً قراراً سماوياً قطعياً بأن يباشر عمله أو بمعنى أصح مهمته ، مختاراً منذ الأزل للبيع والشراء كما اختير غيره للكتابة أو للتبشير ، مباشراً نفس الفضائل التى تتطلبها المشيئة الالهية ، ونجاح تجارته معاً : النشاط والضمير والاحتياط والتوفير . يسير ليحتل فيما بعد فى المجتمع الأوربى ، مكانة تزداد رويداً رويداً قوة وأهمية ، وينتقل بغير ندم أو تبكيت ، ودون تردد أو وخز ضمير ، من خزانته إلى معبده ، مرفوع الجبين ، واثقاً بأداء واجبه المزدوج ، فخوراً بتأمين مكانه الحاضر على أديم الأرض ، وضمان مكانه المستقبل فى عليين .

---

(١) مذكور فى كتاب ر . ه . تاونى «الدين ونشأة الرأسمالية» ، لندن ١٩٢٦ ، مقدمة
Cité par R. H. Tawney, *Religion and the Rise of capitalism,* Londres, 1926 Préface.

إنه انتقام الكالفينية : هكذا يتميز ، جزئياً على الأقل ، تبدل السلطة الذى يعتمل من الجنوب إلى الشمال .

***

ولكن ألا نستطيع أن نتصور شقاقاً ، ينظم على مر السنين ، حتى يشيد فى ثناياه دعائم وحدة من جديد ؟ ألا نستطيع أن نتصور نوعاً من الاعتقاد ، مهما تعارض مع الكاثوليكية ، لا يقبل أى استثناء ؟ أو بالاختصار أورثوذكسية بروتستانتية ؟

إنها أمنية ، بل إرادة طالما تبدت خلال سنين الكفاح وما فيها من بلبلة واضطراب . لقد أحس الناس خطر التفكك والانحلال ، ورأوا عاقبة الميل إلى تقسيم الكنائس مجتمعات صغيرة ، حتى لا تجد أخيراً إلا أفراداً منعزلين ، يناصب بعضهم بعضاً العداء . لقد حكموا بجمع الشمل والاتحاد ، بالاشتراك فى قانون واحد ، ولم لا ؛ ما داموا قد عرفوا كيف يتحالفون ضد العدو الخارجى ، ضد المذهب الكاثوليكى ؟ ولقد وضعوا صيغاً معلنين أنه لا سلام خارج هذه الصيغ . وعمل الناس فى انجلترا فى هذه السبيل ، ولعل النشاط فى هولاندا كان أوفر ، لأن قدوم عدد كبير من القساوسة الفرنسيين وضع على عاتقها جديداً من المهام . إقرار « أرثوذكسى » بالدين البروتستانتى : ذلك على التحقيق ما أيده مجمع دوردرخت ، وعرضه على القساوسة البروتستانت للاعتماد فى أبريل عام ١٦٨٦ ؛ فليختاروا ما بين التوقيع عليه أو الخروج من الكنيسة الجديدة . وقد عملت المجامع التى تلته على الاحتفاظ بالمبادئ ، فاستدعت المنشقين للمحاكمة ، وحرمت كثيرين من المائدة المقدسة ، وأوقفت بعض القساوسة . وكانت أحكامها لا تكاد تقل شدة عن أحكام الكنيسة الرومانية ، التى كانت تبغضها . « إن الجمعية الحريصة كل الحرص على الاحتفاظ بالأرثوذكسية ووحدة المشاعر بين أولئك الذين عليهم أن يبشروا بمذهب الحقيقة ، وبالمحيل السلام ، والمعنية كل العناية بفحص التدابير الحقة التى ينبغى أن تتخذها لاتقاء المستحدثات الخطرة ، وبعد التوجه بالدعاء إلى الله لهذا الغرض ، قد قررت طبقاً للوائحنا القديمة ، ألا تقبل بيننا قسيساً ، إلا إذا أكد لنا اتفاق شعوره مع إيماننا على على وجه التعميم ، ومع مبادئ مجمع دوردرخت على وجه التخصيص ، فضلا عن

خضوعه لكل أحكام نظامنا . . . (١) » . وكان جوريو Jurieu صورة من قضاة محاكم التفتيش : يحتج بل يرعد ضد المذنبين فى مسألة الضمير ، ولا يتورع عن مقاضاتهم أمام السلطات المدنية ، مطالباً بعزل وسجن أولئك الذين لا يشاركونه فى التفكير . « حفظنا الله » ، يقول بايل Bayle الذى جره جوريو أمام قضاة أمستردام ، والذى فصله من وظيفته ، « حفظنا الله من محاكم التفتيش البروتستانتية ، إنها ستصبح فى مدى خمس سنين أو ست من الفظاعة بحيث نناجى الكنيسة الرومانية نجوانا لشئ حبيب . . . (٢) »

ولكن الخطر لم يكن هنا ، فان كل ما كانت تستطيع انجلترا أن تفعله فى ظل وليم أورانج بازاء المنشقين ، لم يكن توحيدهم بل التسامح معهم : إذ تشترط عليهم ارتضاء سياستها مقابل حريتهم الدينية ؛ فهى ، إن لم تكن تسمح بالكاثوليكية ، التابعة لروما ، فانها كانت تسمح بمخالفة الانجليكية ، التى تعتمد على نفسها . أما عن هولندا فلم تكن سوى خلية من المذاهب ؛ منها ما ظهر منذ أولى خطوات الاصلاح ، ومنها ما نما فى إبانه ، فأقدم المذاهب وأحدثها ، بل كل المذاهب تجتمع فيها ، وتقف وجها لوجه . أشياع أرمينيوس وجومار (٣) Arminiens, Gomariens ، والقائلون بالتثليث ومخالفوهم Trinitaires et Antitrinitaires ؛ كل المعتقدات المذهبية ، كل ألوان الاعتقاد عن النعمة الالٰهية ، وعن الكتب المقدسة ، وعن حقوق الضمير ، وعن التسامح ، وحتى عن طبيعة السلطة المدنية ، توقع الأحزاب الهائجة ، الثائرة ، بعضها فى بعض . وكانت المعركة مستعرة لا يخمد لها أوار ، ولا يقتصر السبب على

---

(١) مقتطفة من المواد المقررة فى مجمع كنائس فالون بهولندة ، المنعقد فى روتردام ١٦٨٦ — المادة السادسة ، ذكرها فرانك بيو فى كتابه « المهدون للتسامح الدينى فى فرنسا فى القرن السابع عشر ١٨٨١ — أنظر نفس الكتاب » مباحثات مجمع أمستردام ١٦٩٠ ، Extrait des articles résolus dans le Synode des Églises wallonnes des Pays-Bas, assemblé à Rotterdam (1686) Article VI. Cité par Frank Puaux, *Les précurseurs de la Tolérance en France au XVIIe Siècle*, 1881.

(٢) رسالة بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٦٩١ .

(٣) Arminius : لاهوتى بروتستانتى هولاندى (١٥٦٠ - ١٦٠٩) مؤسس مذهب أرمينيوس ، الذى يلطف من نظريات كالفين عن « القدرية » . وجومار لاهوتى بروتستانتى ولد فى بلجيكا (١٥٦٣ - ١٦٤١) ، من أشد أتباع كالفين تعصبا وكان بينه وبين أرمنيوس جدال شديد . [المترجمان]

إخلاص الأذهان الصعبة المراس ، التى تريد الدفاع عن حقيقتها بأى ثمن ، ولا على لذة وفائدة الجدال الذى يدفع النور إلى الانبثاق « كارتطام الحجرين الذى يحول المادة المعتمة والكاسنة فى جسم جامد إلى شرارة » ؛ بل يتعدى ذلك إلى نفس المبدأ الذى يكمن فى عبقرية البروتستانتية . .

إذا كانت البروتستانتية فى مختلف مظاهرها ، تتضمن حقيقة عصيان الضمير الفردى ضد تدخل السلطة فى مسائل الايمان ، فبأى حق إذن تفرض سلطة نفسها على الضمائر ؟ من ذا الذى يعين النقطة التى تقف عندها الأرثوذكسية ، والتى تبدأ عندها الأثوردكسية ؟ إن القول باسم البروتستانتية بأن هذه النظرية أوتلك فى صدد الاختيار والقدرية عقيدة مذهبية ، ومن باب أولى القول بأن للحاكم الحق فى استعمال سلطته لهدم الوثنية وإيقاف تقدم الكفر ؛ القول بأن رجلا له الحق فى أن يمنع رجلا آخر من أن يمارس تعليمه أو تبشيره ، أو حتى من أن يعتقد بما يمليه ضميره : إن ذلك هو اللامنطقية المحضة .

من هنا كان عدم اقتدار المجامع الدينية على جمع القساوسة والمؤمنين سواء فى كتلة خاضعة ، وعجزها عن منع تكاثر المذاهب ، وعن إيجاد الكلمة التى توقف روح البحث عن نشاطه الذى لا يعتريه كلال .

وإنك لتجد لفظاً يتكرر تكراراً خاصاً فى المجادلات اللاهوتية لذلك العصر : السوسنيانية le Socinianisme (١) . وهو فى أولى خطواته مروق فوستو سوزينى

(١) المذهب السوسينى أو السوسنيانى Socinianisme : هو فى الأصل مذهب قديم ظهر فى القرن الرابع بعد المسيح فى عهد الامبراطور قسطنطين . اشتهر باسم الاريانية نسبة إلى صاحبه أريوس ، القسيس بالاسكندرية . وهو مذهب ينكر ألوهية المسيح وسر التثليث ويعترف برسالة المسيح وبأنه كلمة الله . وقد لقى نجاحا موقوتا فى عهد قسطنطين ثم فشل بعد حكم مجمع القسطنطينية فى عام ٣٨١ . وفى منتصف القرن السادس عشر عاود الظهور فى أوروبا تحت اسم « السوسنيانية » وكان من أصحاب هذا المذهب ليليوس سوسان ، باروثا ، أوشين ، جنتليس ، وسرفى . وقد حكم بالاحراق على كل أولئك المتحررين ماعدا فوستوس سوسان ، ابن عم الأول ، الذى استطاع الفرار إلى المانيا مع بعض رفاقه . وانتشر هذا المذهب منذ ذاك الوقت فى هولاندا وفى أرجاء أوربا حتى ظهر فى انجلترا فى قوة ونضرة ليس لها نظير . وانضم إليه كبار الفلاسفة الانجليز مثل نيوتون ولوك وكلارك . . . فولتير : القاموس الفلسفى Voltaire, *Dictionnaire Philosophique* (Arianisme) الجزء الأول ، باب « أريانيزم » ؛ ورسائل فلسفية *Lettres Philosophiques* ، الرسالة السابعة عن سوسان . [المترجمان]

F. Sozini ، ظهر أول ما ظهر فى بولونيا فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر . وقد طرد أشياع سوسان من بولونيا فالتجأوا إلى بروسيا وفرنسا ووجدوا فى هولاندا أرضهم المختارة . وهناك تتشكل جمعية الاخوان البولونيين ، حيث ينشر حفيد سوسان المدعو « ويزواتى » Wiszowaty فى عام ١٦٦٥ كتابه Religio rationalis « الدين المنطقى » ، وهو كتاب يتضمن مبادئ المذهب . وفى هذه النقطة يتقوى تيار نهر السوسنيانية براقد فرنسى ؛ إذ يقدم القسيس إسحق دى ويسو Isaac d'Huisseau فى عام ١٦٦٩ كتابه « اتحاد المسيحية » ، مقترحا تطبيق الاصلاح الذى اهتدى إليه ديكارت فى الفلسفة ، على الدين : لن يصدق الناس شيئاً فيما بعد ، ما لم يجدوه مشروحا فى الكتاب المقدس بوضوح ، ولن يحتفظوا إلا بالحقائق البسيطة العالمية المسطرة فيه ، والتى تتفق مع مبادئ المنطق . فلا تقاليد إذن ، أو لا كنيسة صراحة ؛ الله والكتاب المقدس والضمير الفردى ، لا شئ غيرها ولا مزيد عليها . ويثور الجدال فى كل الكنيسة الفرنسية المستصلحة حول هذه المبادئ ؛ إن الاضطهاد والنفى لم يوقفا الانقسام بل زاداه حدة . وترى بابون Papon صهر اسحق دويسو يقبل الالحاد ، وتجد أتباعه ومخالفيه يتقاتلون . إن المجمع الذى يقاوم تقدم الروح السوسنيانى ليس له وجود .

وإذا صح أن هذا المذهب قد وهن من جهة كونه مذهباً ، وأنه « انكمش فى الظاهر » ، فانه قد تكاثر « خفية » : فان مبادئه الفتية المتفشية تتوغل فى الضمائر ، وتدفعها إلى إبدال الروح الدينى بالروح المنطقى

وبعد ، فما معنى السوسنيانية ؟

عند بوسويه أن مبدأ السوسنيانية الأساسى ، هو أنه ما من أحد يستطيع أن يجبرنا على الاعتقاد بما لا ندركه بوضوح . ويقول بواريه Poiret : Socinianismus finem et scripturam subjicit rationi : المذهب السوسنيانى يخضع الكتاب المقدس للعقل ؛ ويقول بوفندورف Pufendorf إن السوسنيانيين لا يجعلون من الدين المسيحى إلا فلسفة أخلاقية صرفة . وكان جوريو مهووسا بالسوسنيانية يراها فى كل مكان ، ولا ريب فى أنه لا يخطئ فى ذلك كثيراً ، فان هذا الميل العام نحو المنطقية كان كبيراً . وهو يقول إن السوسنيانيين يرون أنه لا فرق بين دين ودين . وإنهم ينكرون الأسرار : بينما الشعور

بالسرية هو جوهر الروح الدينى . . . بيد أن أخطر ما سطر هو ما كتبه ريشار سيمون فى صدد الحكم الصادر على دى ويسو « إن القطيع الصغير ، أراد بمعاملته القاسية للقسيس دى ويسو أن يتهدد ويتوعد عدداً كبيراً من القساوسة الذى يشاركونه مبادئه . ولقد أبلغ قراره هذا إلى عدد من قساوسة المقاطعات الذين أيدوه ، ولو أنهم لم يلجأوا إلى هذه الشدة ، لقضى الأمر بالنسبة لمذهب كالفين فى فرنسا ؛ ولكان أذكى أتباع هذا المذهب أعلنوا صراحة أنهم أرمينيون ، بل ربما سوسنيا نيون . ولكنهم اكتفوا بأن يكونوا سوسنيانيين فى دخائلهم ، وألا يفصحوا عن ذلك إلا لأصدقائهم الأخصاء ؛ إن خشية فقدان وظائفهم قد دفعتهم إلى إتخاذ هذه الطريق . فهم لم يصدقوا على إقرارهم الدينى إلا لأسباب سياسية ، مقتنعين بأن كالفين وغيره من دعاة الاصلاح الأولين ، لم يقوموا بالاصلاح إلا جزئياً . . . (١) » . وإنها لصحيفة من الكراهية والافتراء ، ولكنها على الأقل تبين بوضوح ، الواقع الذى استشفه ريشار سيمون بثاقب بصيرته : وهو أن الاصلاح يستمر فى الاستصلاح .

ويستعر الجدال بين قساوسة هولاندة وألمانيا . ويكافح القساوسة المشتتون فى لندن ضد المذهب السوسنيانى الذى عبر البوغاز . وكل جهد يبذل لتوحيد مذهب كالفين ومذهب لوتر بطريقة أو بأخرى ، — غير ما يجمعهما من وشائج القربى — لجمع الكنيستين فى إقرار دينى واحد ، يضيع هباء ويبقى بلا جدوى .

وهكذا وجد الكاثوليك مسلاتهم فى القول بأن البروتستانت منذ ماخرجوا على الكنيسة الرومانية ، دخلوا فى قصر التيه . وبالمثل ، استطاع بوسويه أن ينشر فى عام ١٦٨٨ كتابه « تاريخ تغيرات الكنائس البروتستانتية » ، *Histoire des variations des Eglises protestantes* ، لكى يثبت أن تلك الكنائس قد تغيرت فى الماضى ، وأنها تتغير بلا انقطاع ، وأن جوهرها بالذات هو التغير . إنها تتفتت من جزء إلى جزء حتى لا تعود إلا ترابا . . . من المحال أن تجمعها ، من المحال أن تكبحها ، ماداست كل واحدة منها لها نفس الحق فى الحياة . إنها تنتج كلها من نفس مبدأ البحث الذى يتطلب التغير والتحول من فحص إلى فحص . ذلك يفسر وفرة الاقرارات الدينية التى لايسع المؤرخ

(١) ريشار سيمون : رسائل منتخبة ، الجزء الثالث ، Richard Simon, *Lettres choisies*, t. III, 3

إلا أن يسجلها ، كما يفسر عقم المحاولات التى جرت فى سبيل مصالحة تلك الطوائف التى من طبيعتها أن تسير فى طريق الانقسام .

***

نستطيع أن نرد على بوسويه مهاجمين وقائلين إن الكنيسة الكاثوليكية نفسها لم تسلم من التغيير ، وهو ما فعله جاك باناج بين عدد كبير من معارضيه . كما نستطيع أن نرد عليه بأن الكنيسة البروتستانتية لم تتغير ولم تتحول عن مبادئها الأساسية ، وهو مافعله جلبرت بيرنت .

بيد أننا لا نرى فى أقواله هذه اتهاما ، بل شرفا ، ونحن لا نعتبر روح البحث إلا كامتياز للانسانية ، التى لا تتلقى الحقيقة من السماء ، بل تعمل جاهدة على كشفها ، وعلى توطيد دعائمها بنفسها (١). ولو أننا لاحظنا خطر السلطة الزائدة عن الحد أو الحرية الزائدة عن الحد ، لاخترنا الثانية طواعية، إذا لم يكن بد من الخطر .

يتعرض جان لى كلير فى مجلته « المكتبة المنتخبة » عام ١٧٠٥ ، لهذه المسألة ، وبنفس الألفاظ تقريباً . ما أكثر الكفار حوله ! كثير من الكتب التى يذكرها فى مجلته تحاول مناقضة الكفر : وهذا دليل على أن الكفر قد أخذت خطورته تستفحل . بالأمس لم يكن الناس يفحصون ، ولم يكن يساورهم الشك فيما يلقنهم « الأساتذة » ، بل كانوا يبنون أحكامهم على كلامهم . أما اليوم فقد انعكست الآية ، واختلفت العادة ، فلم يعد الناس يثقون بالسلطة . فهل ينبغى أن نفضل الحالة الأولى ؟ — جان لى كلير لا يتردد . إن عدم التصديق شر ، ولكن الميل إلى تصديق كل شئ بغير بحث أو فحص شر أرذل، فهو يتأتى من حماقة العقل ومن عدم اكتراث بالحقيقة . إن شعبا فيه كثير من النور وقليل من الكفر ، لخير من شعب يسود فيه الجهل ولا يساوره الريب فى المشاعر الموروثة . فان النور يفئ الفضيلة ولو أساء البعض استعماله ، بينما الجهل لا ينتج إلا البربرية والرذيلة .

---

(١) أنظر ، ا . ريبليو ، بوسويه مؤرخ البروتستانتية ، الطبقة الثالثة ١٩٠٩ ، ص ٥٧١ ، A. Rebelliau .

إن الفكرة التى يعبر عنها جان لى كلير الأرسنيوسى ، السوسنيانى ، هى التى ستسود فى مستهل القرن الثامن عشر . لقد مضى الوقت الذى فرض فيه ديكارت على نفسه طواعية ، قيوداً للحيطة ، لما شعر أن مبدأه سيدفع به إلى أبعد الحدود : « أولها طاعة القوانين والعادات فى بلادى ، واحتفاظى دائما بالدين الذى تفضل الله فعلمنيه منذ طفولتى ، والسير فى كل ميدان آخر حسب المعتقدات الأكثر اعتدالا والأبعد عن المغالاة ، والتى يتقبلها عموماً فى الحياة العملية ، أعقل الناس ممن سأعيش بينهم . »

ولقد أتى وقت الأثورد كسية ، كل أنواع الأثورد كسية ، وقت المتمردين والعصاة ، الذين تكاثروا فى عهد لويس الرابع عشر فى الظلام ، مترقبين إشارة التحرير ؛ وقت العلماء الذين سيرفضون تقبل التقاليد بغير رقابة ولا تمحيص ، وقت أتباع جانسينيوس الذين يؤججون شعلتهم التى لا ينطفئ لها ضرام ؛ وقت أنصار الخشوعية (١) piétisme من كل شاكلة ؛ وقت المفسرين والفلاسفة ؛ وقت بيير بايل .

---

(١) الخشوعية : مذهب بروتستانتى يقوم على التنسك والزهد وينادى بكنيسة عالمية تشمل كل المؤمنين . [المترجمان]

الفصل الخامس

بيير بايل

ينحدر بيير بايل من مقاطعة فوا Comté de Foix ، فهو جنوبي فر إلى الشمال ، مثله فى ذلك مثل الكثيرين ، الذين أتوا إلى هناك بنشاطهم الذهنى ، وميلهم للأفكار ، ومتانة خلقهم ، وحيويتهم التى لا تصدق . وكان بروتستانتيا ، أبوه من قساوسة هذا المذهب ؛ درس اللاتينية واليونانية فى مدرسته ، ثم أكمل دراسته فى مجمع بيلورانس . بيد أنه توقف فى بداية الطريق الذى اختطه ، والذى سيدفعه إلى أبعد الميادين ، التى يبقى فيها وحيداً بلا رفيق ، سابقاً جميع أقرانه ؛ وهو الطريق الذى سنتبعه فيه ، لكى نبين مراحل تفكير يبدأ بالدين وينتهى إلى حالة قريبة من الشك الخالص : فلما كان قد قرأ كتبا عن الجدال ، فقد اعتنق الكاثوليكية ، ثم تابع دراسة الفلسفة فى جامعة الجيزويت فى تولوز؛ ولما جعلت « التأثيرات الأولى لتربيته تتغلب عليه ، (١) » انضم إلى كنيسة الاصلاح ، سعيداً سعادة المقيم فى القطب الشمالى تطلع عليه الشمس ؛ ثم ذهب إلى جنيف فى عام ١٦٧٠ . « لقد كان وقتاً كنت أجيد فيه المناقشة ، إذ كنت حديث التخرج فى مدرسة لقنت فيها المشاكسة المدرسية القديمة ، وأستطيع أن أقول فى غير زهو إنى كنت أجيد استعمالها (٢) ».

خطوة أخرى ، وينتقل بايل من أرسطو إلى ديكارت . فقد ألقى محاضرة فلسفية حينما عين أستاذاً فى مجمع سيدان ، تظهره لنا من أشياع التفكير الواضح والبداهة العقلية . على أن هذه الميول ليست دائما خلواً من روح التبشير . ترى هل كان يقنع بتدريسه ؟ وهل يكرر عاما بعد عام دروسه المملة ؟ ذلك

---

(١) رسالة بايل إلى بنسون دى ريول ، روتردام ، ٢٥ يونيو ١٦٩٣ ، *Bayle à Pinson de Riolles* .

(٢) رسالة بايل إلى باناج ، ٥ مايو ١٦٧٥ ، *Bayle à Basnage* .

أمر ليس قريب الاحتمال . لقد أرسل من سيدان إلى « مجلة العلماء » رسالة عن المذنبات والنبوآت ، خشي المحرر أن يقبلها ؛ بيد أن هذه الرسالة أصبحت علامة ساطعة لتحرره من قيود التدريس ، بعد أن تناولها ببعض التصحيح والتهذيب ، وزاد فى حجمها زيادة كبيرة ، ونشرت فى عام ١٦٨٢ .

كان بايل يستشعر نداء فى دخيلة نفسه ، وكان البحث والتمحص من مقتضيات طبيعته ، يزن فى كل شئ ما له وما عليه ، ولا يقبل شيئاً إلا بعد حكم سابق من محكمته الذاتية . ولما أغلق مجمع سيدان لأسباب دينية ، وبعدما بحث عن وسيلة يكسب بها قوته ، غير عارف ماذا سيفعل incertum quo fata ferrent ، دعاه سادة روتردام أولئك ، عارضين عليه وظيفة فى مدرستهم التى طبقت شهرتها الآفاق ؛ وهنا نستطيع أن نرى مصادفة عجيبة للعناية الالهية ولقواتها الحية ، على فرض أنه لا يزال يعتقد بها : سيظل يعمل مدرساً ليكسب قوته ، ولكن عمله الحقيقى ، أو الأحرى مهمته ، أو وظيفته ، أن يكون صحفياً ، ليقود الناس نحو الحقائق القاسية ، التى أخذت تجتذبه وتسحره بالفعل .

وينبغى أن نتخيله ، هناك فى روتردام فى داخل غرفته ، غيوراً وضعيفاً ، منعزلا ، مبتعداً عن الحياة الحسية ؛ وقد تجد لديه عواطف عائلية قوية ، ولكنك لا تجد لديه حباً أبداً . وقد تجد كتباً كثيرة ولكنها لن تكفيه مهما كثرت . وقد تجد أخباراً أيضاً ، يزوده بها أصدقاؤه من مختلف عواصم أوربا رحمة به ! « إن نهمى إلى الأخبار لأحد الأمراض المستعصية التى لا يفلح معها دواء ؛ إنه استسقاء محض ، كلما أعطيته كلما ازداد طلباً وإلحاحا (١) » . أما الكتب ففيها شئ أدق ، فهى تمثل فكرة معينة ، نستطيع أن ندركها تمام الادراك ، إنها تهيج العقل وتدعوه إلى العراك : إننا أمام خصم قد أعد أدلته لمعركة منظمة ، فأى سعادة فى مهاجمته بالفرق السريعة من الأدلة والردود والأسباب ! فانك لتستطيع أن تصل إلى الكاتب من خلال الكتاب ، وأن تقول له ما يستحقه ، وأن تبين له فقره وعجزه . أما الرجل فلا يظهر إلا نتيجة للكتاب : إن بيير بايل يوجه ضد الكتب معاركه العظمى . منذئذ لا تحسب فى حياته

(١) بايل إلى مينوتولى ، ٢٧ فبراير ١٦٧٣ ، *Bayle. à Minutoli*, 1673.

أية واقعة ما لم تكن فكرية : إنه يقرأ ويكتب ويناقش ، ويجد « فى المطالعة من اللذة والتسلية ما يعادل ما يجده الآخرون فى دور اللهو والمقامرة » . إن شهوة العلم La libido sciendi تتملكه : يريد أن يعرف كل شئ ، لينتقد كل شئ .

وهو كصحفى لم يصل بعد إلى ذروة حرارته الجدالية : كتب إليه برنييه Bernier فى ١١ أبريل ١٦٨٦ يقول : «إننا نراك كالنبيذ الايطالى dolce piccante ولكنا بما نحن عليه من خبث نريد أن نراك piccante dolce (١) . ولقد التزم شيئاً من التحرز والتحوط، ولكن الروح العام لمجلة «أخبار جمهورية الأدب» *Nouvelles de la République des lettres* يتضح فى جلاء . فهى تدعو القارئ إلى التفكير فى أخطر الموضوعات : وحيث إنه ليس أخطر من أسباب الاعتقاد أو الارتياب ، فلتتواجه كل الأفكار بكل حرية ! ، ولتحتل مكان الشرف بين الأفكار ، تلك التى تركها الناس فى الظلام بمحض الاختيار ، فى حالة من التمرد والعصيان ! فلتأخذ الأثورد كسية المخنوقة بثأرها منذ الآن ! وليعبر عن رأيه كل إنسان ، وليكن لأجسر الآراء مظهر من المجد والجلال : « فليعرف أولئك الذين يتهامسون ضد تسامح كتب الملحدين ، أن ليست كل أنواع العقول ، تلائم ذوق محاكم التفتيش . » حتى الأورثوذكس ، على حد قول بايل ، يجب أن يواجهوا الالحاد بغير خوف : وإلا فهل يقبلون أن يشاد انتصارهم على الاستحالة التى يضعون فيها خصومهم لابداء ما لديهم من أسباب (٢) ؟

وكان بايل محموما بفطرته ، وهل كان يستطيع بغير حمى أن يتغلب على هذه الكتلة الهائلة من العمل ؟ كان يكتب النصوص ، ثم يجرى تصحيح الأصول ، ولم يكن هذا منشأ تعبه ، فلمداد المطبعة عبير عطر جميل ! وإنما تعبه يتأتى من القراء الذين لا يكتفون ولا يقنعون ، قراء يعطون فكرة صحيحة عن الحماقة البشرية ، بما يبدون من متعارض الآراء ، وباعتقاد كل منهم أنه

---

(١) dolce piccante : لذة حريفة piccante dolce : حراقة لذيذة . [المترجمان]

(٢) أخبار جمهورية الأدب . يوليو ١٦٨٥ ، المادة التاسعة . ملاحظات عن تسامح كتب الالحاد ، *Nouvelles de la République des Lettres*, Juillet 1685, art. IX. *Réflexions sur la tolérance des livres hérétiques*

على صواب ، مما جعل منشأ تعبه تلك الرسائل التى تفوق الحصر والتى كان ينبغى أن يسطرها كل يوم . ونحن حين نؤلف كتابا ، نتركه ثم نرجع إليه ثم نقرأ كتابا غيره ، فنجد تسلية فى تبديل العمل ؛ أما إذا كان لدينا رسائل ينبغى أن تكتب ، فلابد من أن نتعجل ، فنتعب ونكل . وقد عاش بايل على هذا المنوال مدة ثلاث سنوات ، من مارس عام ١٦٨٤ إلى فبراير عام ١٦٨٧ ، ثم كف عن العمل .

ولكن الطريق عاد فاجتذبه ودفعه نحو الممر الفاصل . لقد وقف فى أول صف بين المدافعين عن البروتستانتية . وناقض الأب ماسبورج بكلام مستفيض ، بالسيل الدفوق الذى يجرف كل شئ فى طريقه ، من براهين وإهانات . ولما زادت تدابير الاضطهاد ، ووقع فى يده كتاب وارد من فرنسا ، يمدح فيه مؤلفه لويس الرابع عشر ، على جعله المملكة كاملة الكثلكة تحت سيادته(١) ، شرع اليراع من جديد(٢) : ليقول هو ، بيير بايل ، رأيه فيه : « لو أننا أدركنا قوة هذه الكلمة ومعناها الحالى ، لما حسدنا فرنسا على صيرورتها كاثوليكية تحت سيادة لويس العظيم ، لأن أولئك الذين سموا أنفسهم بهذا الاسم قد سلكوا منذ أمد بعيد سلوكا يدفع إلى الاشمئزاز ، حتى إن الرجل الشريف ليعد تسميته كاثوليكيا وصمة عار ، فبعد أفعالكم فى المملكة الكاملة الكثلكة ، ينبغى أن يستوى من الآن قولنا الدين الكاثوليكى وقولنا دين الأشرار الخوان . »

نجد فى إنجيل لوقا ، فى الفصل الرابع عشر ، مثلا لصاحب الدار الذى أعد مأدبة لمدعوين معينين ، تخلفوا عن الحضور . فقال السيد لعبده : « اخرج عاجلا إلى شوارع المدينة وأزقتها ، وأدخل إلى هنا المساكين والجدع والعرج والعمى . فقال العبد يا سيد قد صار كما أمرت ، ويوجد أيضا مكان . فقال السيد للعبد ، اخرج إلى الطرق والسياجات وألزمهم بالدخول . . .(٣) »

---

(١) فرنسا الكاثوليكية فى عهد لويس العظيم ، أو محادثات بعض البرتستانت الفرنسيين ١٦٨٤ .

(٢) رسالة مرسلة من لندن إلى الأب . . . ورهبان . . . عن فرنسا الكاثوليكية فى عهد لويس الرابع عشر . سان أومير ، ١٦٨٦ .

(٣) نقلا عن إنجيل لوقا ، الاصحاح ١٤ ؛ ٢١ ، ٢٢ . [المترجمان]

ألزمهم بالدخول ، Compelle intrare ، تلك هى الكلمة التى رددها القديس أوغسطين لالحاق الدوناتيين Donatistes (١) بكنيسة أفريقيا والتى نادى بها المبشرون الكاثوليك بدورهم ، للتدليل على صواب استعمال القسوة ضد البروتستانت . فقابل بايل أولئك بفورة من السخط الشديد ، تعدت شدتها كل ما سبق أن أبداه : لأن الأمر هنا يتعلق بأعمق ما فى تفكيره وأعزه (٢) . أنستعمل القوة فى مسائل الضمير ؟ يا للشناعة ! يا للفضيحة ! وينتقل بايل من سباب إلى سباب ، ومن استنكار إلى استنكار : — إن الكنيسة الرومانية التى تطالب لنفسها بالسلطة والعصمة ، والتى تريد أن تفرض على الأرواح قانون الأقوى ، والتى لا تتورع عن استعمال مبشرين أنصاف جنود وأنصاف وحوش ، ليست إلا امرأة سليطة ، بل بغياً فاجرة . لا لن يجمعنا بالكاثوليك قياس مشترك بعد الآن ، لأنهم يعودون دائماً إلى رطانتهم العتيقة ، قائلين نحن الكنيسة وأنتم العصاة ، فلنا الحق فى أن ننزل بكم العقاب دون أن تستطيعوا إنزاله بنا : يا للادعاء الذى لا يطاق ! فلتبق أوربا فى انقسام كما هى الآن ! اللهم لا توقع الشعوب التى تخلصت من ربقة روما تحت نيرها مرة أخرى !

وليست هذه بضمانات واهية القيمة لرفاقه بالمهجر ؛ وقد كان بايل يستحق من حزبه بعض الشكر ، بيد أن القصة تبدأ من جديد ؛ إنه لمن العبث أن تسلم للبروتستانت بسلطة الاجبار التى أنكرناها على الكاثوليك . إن الاقتضاء المنطقى لا ينظر أبداً إلى سر من الأسرار إلا على أنه مشكلة مؤقتة عابرة ، سواء أكان قد قبله قساوسة الكاثوليك أم قساوسة البروتستانت . فان نور اليقين الطبيعى يريد أن يحل محل المصباح الذى يسهر أمام الهيكل المقدس

(١) الدوناتيون : أتباع مذهب دونات مطران قرطاجنة فى القرن الرابع بعد الميلاد ، وكانوا يرون أنفسهم وحدهم ورثة الحواريين . [المترجمان]

(٢) « تفسير فلسفى لكلمات السيد المسيح هذه : « ألزمهم بالدخول » ؛ يثبت ببراهين كثيرة أن ليس أوقح من الالتجاء إلى القوة لتغيير الدين ، وينقد كل سفسطة لمستعملى القوة لتغيير الدين ، والمدح الذى أضفاه القديس أوغسطين على الاضطهاد الدينى » . مترجم عن الانجليزية الجان فوكس دى بروج ، بقلم م.ج.ف. (١٦٨٦) ، *Commentaire philosophique sur ces paroles de J. C.* ... Traduit de l'anglais du sieur Jean Fox de Bruges, par M. J. F. 1686.

سواء أخص الأمر كنيسة أم خص معبداً ؛ حتى إن بايل يهلك أصدقاءه ، فى غمار قتاله ضد أعدائه ، وينفس السلاح . إنه يقول إن الضمير لا يعول إلا على نفسه ، وإنه إذا كان يقبل ، بحسن نية ، ما يتراءى له أنه الحقيقة ، فلن توجد قوة خارجية تستطيع أن تؤثر عليه ويكون تأثيرها مشروعاً ، وإنَ الضمير الذى يخطئ دون خبث أو سوء نية ، الضمير التائه المتحير ، ليس مسئولا ولا يجوز أن يجبر ويقسر . إن الكافر الذى يعتقد أنه يجب أن يكون كافراً ، لا يقل عن البروتستانتى « الأورثوذكسى » فى شئ . وإن كلمة أورثوذكسى هذه ، لكلمة لا تطاق ، ما دامت تعنى سلطة مفروضة على الأذهان . ولقد أخفى جوريو وجهه بعد هذه الكلمات ، وصاح : لقد أصبح بايل سوسنيانياً . والحق أنه سوسنيانى ، بل أكثر من ذلك ، إذا كان صحيحا أن بايل نفسه يشرح فكره بهذه الكلمات :

« معاذ الله أن أريد توسيع دائرة النور الطبيعى ، ومبادئ الميتافزيقا مثلما يفعل السوسنيانيون ، الذين يرفضون كل تفسير للكتاب المقدس لا يتفق وهذا الضوء وتلك المبادئ ، والذين — بناء على هذه القاعدة — يرفضون الاعتقاد بالتثليث ويسر التجسد . كلا ، كلا ، هذا ما لا أدعيه بغير حدود ولا قيود . إنى أعرف جيداً أن هناك حقائق بديهية ، لا تفلح فى الغلبة عليها أصرح أو أوضح آيات الكتاب المقدس ، مثل كون الكل أكبر من جزء منه ، وأننا إذا طرحنا أجزاء متساوية من أشياء متساوية ، فالبواقى متساوية ، وأنه من المحال أن تجدشيئين متعارضين متساويين ، كما أنه من المحال أيضاً أن جوهر شئ يبقى بالفعل بعد هلاك الشئ . إذا كان الناس يكشفون مئة مرة فى الكتاب المقدس عكس هذه المحمولات ، وإذا كانوا يأتون بألف وألف معجزة ، أكثر مما أتى به موسى والحواريون ، لكى يثبتوا مبدأ يخالف هذه المبادئ العالية للادراك السليم ، فلن يصدق المرء منها شيئاً ، فالأرجح أن يقتنع بأن الكتاب المقدس لا يتكلم إلا بالمجاز والألغاز والحقائق المعكوسة ، وأن تلك المعجزات مأتاها الشيطان ، فذلك خير من أن يعتقد بأن نور اليقين الطبيعى يخطئ فى هذه المبادئ . »

. . . « وإنى لأكررها مرة أخرى : معاذ الله أن أريد توسيع هذا المبدأ مثلما يفعل السوسنيانيون ؛ ولكن إذا أمكن أن يوجد بعض التحديد بالنسبة

للحقائق النظرية ، فلست أعتقد بامكان وجود أى تحديد بالنسبة للمبادئ والعادات العامة التى تتعلق بالأخلاق . أريد أن أقول إنه — دون أى استثناء — ينبغى أن تخضع كل القوانين الأخلاقية للعدالة ، تلك الفكرة الطبيعية التى يهتدى بها مثلما يهتدى بضوء الميتافيزيقا ، كل رجل يخرج إلى هذه الدنيا .

ينبغى علينا ، بل يتحتم أن نحكم بأن كل مبدأ دينى خاص ، سواء ادعى الناس أن الكتاب المقدس يتضمنه ، أو لم يكن الأمر كذلك ، باطل غير صحيح إذا نقضته معارف النور الطبيعى الواضحة الصريحة ، ولا سيما فيما يتعلق بالأخلاق (١) . »

***

أن يعكف بايل على وضع قاموس : أليست هذه فكرة غريبة ، لرجل فى مثل طبعه ؟ سيتولى هو بنفسه الاجابة على هذا السؤال : « نحو ديسمبر من عام ١٦٩٠ قر رأيى على تأليف قاموس نقدى يتضمن سرداً للأخطاء التى ارتكبها مؤلفو القواميس أو غيرهم من المؤلفين ، يبين تحت اسم كل رجل أو مدينة ، مايخص هذا الرجل أو تلك المدينة من أخطاء . . . (٢) » وهو لم ينفذ هذه الفكرة بتمامها ، بل سجل تحت أسماء مرتبة حسب الحروف الأبجدية بعض معلومات واقعية . ولكن أروع اجتراءاته الحية تتبدى فى التعليقات التى ينثرها هنا وهناك ، أو يطمرها . حتى إنك لا تجد أسمى صور التعبير عن أفكاره إلا استثناء ، وفى الموضع الذى تتوقعه . إنها الجنابى أو « استغماية » وقد كان يهوى هذا النوع من اللعب ، وكان يجيده . وبالرغم مما اضطر إلى إدخاله على مشروعه من تخفيف ، حتى لا يثير لأول وهلة دهشة الجمهور والناشرين ، فان ذلك « القاموس التاريخى النقدى » *Dictionnaire historique et critique* يظل أشد عريضة اتهام تثير الخجل وتنشر الارتباك فى الناس . فأمام كل اسم على وجه التقريب ، تتفجر ذكرى وهم أو خطأ أو احتيال أو جرم . كل هؤلاء الملوك الذين سببوا تعاسة رعاياهم ، وكل أولئك البابوات الذين هبطوا بالكاثوليكية إلى دركات أطماعهم وأهوائهم ، وكل أولئك الفلاسفة الذين

---

(١) « تفسير فلسفى » . . . ، القسم الأول الفصل الأول .

(٢) رسالة من بيير بايل إلى ابن عمه نوديه ، ٢٢ مايو ١٦٩٢ .

وضعوا السخيف من النظريات ، وكل تلك الدول والمدن التى تذكرنا بالحروب والمذابح والاغتصابات . . . ثم كثيراً من المفاسد والشناعات : وإذا كان بايل يذكرها راضيا قريراً ، فقد يكون ذلك لأن أصحاب المكاتب طلبوها منه لاجتذاب القارئ كما يقول . أو لعله أراد أن يجد بعض التسلية — كما يقول أيضاً — فى التنويه بأن سرد الخطايا التى ارتكبها المرء شئ ، وإدخال بعض الطلاوة على قصة ببعض ألفاظ طليقة شائقة شئ آخر ؛ لكن أليس الأرجح أن السبب هو أن كتلة بطلالنا وضلالنا تضاف إليها كتلة شذوذنا وفسادنا الخلقى ، وبذا تطابق أخطاؤنا فى دائرة التفكير رذائلنا فى مجال الأخلاق ؟ يضاف إلى ذلك قصص الرواة ، رواة مافعله الآخرون ، وما أكثر القصص التى نسجوها بما هم عليه من خفة أو حماقة أو هوى أو فساد ! ياله من منظر !

كل ذلك ينبغى أن يطهر ، وتلك هى بالذات المهمة الأولى التى يشرع فيها بايل بالتذاذ تشوبه الحسرة . بئس كتاب الأساطير ! لقد أخطأ العالم كله وانخدع : القدماء الذين كانوا يلقون بالكذب كما نلقى بالكلام ، والمحدثون المسحورون بنفوذ القدماء ، وحتى أكثر المؤلفين اقتداراً وأحقهم بالاحترام ، فلاسوت لوفاييه La Mothe Le Vayer (١) نفسه أخطأ وكذلك غاسندى (٢) . وهناك محترفو الكذب مثل موريرى (٣) ، الذى ألف قاموساً كما لا ينبغى أن يؤلف القاموس ، قاموساً ليس نقديا ، بل يفيض بالضلال والأخطاء . إنه مسمم عام ، فلننفنده نقطة نقطة ، ولنرقم أكاذيبه ، لقد كذب اثنى عشرة مرة هنا ، وخمس عشرة مرة هناك : فلنقبض عليه دون شفقة من قفاه . بذلك العمل المنزه المعصوم ، نسترد لليقين حقوقه . إن قانون جمهورية الأفكار قانون قاس ولكنه بديع ! ، إن هذه الجمهورية دولة حرة غاية الحرية . لا يعترف الناس فيها إلا بسطوة اليقين وصولة العقل ، وفى كنفهما يحارب الناس أى إنسان

---

(١) لاموت لوفاييه La Mothe Le Vayer : اديب وعالم فرنسى ولد فى باريس . صاحب « ملاحظات عن البلاغة الفرنسية » (١٥٨٨ - ١٦٧٢) . [المترجمان]

(٢) غاسندى Gassendi : فيلسوف فرنسى مادى ، اشتهر بمهاجمته لفلسفة أرسطو (١٥٩٢ - ١٦٥٥) . [المترجمان]

(٣) موريرى Moreri : مؤرخ فرنسى شهير ، مؤلف « القاموس التاريخى » (١٦٤٣ - ١٦٨٠) . [المترجمان]

بحسن طوية . فعلى الأصدقاء أن يحترسوا من الأصدقاء وعلى الآباء أن يحذروا الأبناء . . . (١)»

هذا الاقدام ، هذا الشغف بالنضال ، هذا العزم على قشع الوهم والضلال ، يفترض فكرة قدرتنا على الوصول إلى يقين يبقى بالرغم من كل جهد مضاد : يقين الوقائع الذى يكشفه النقد ومعرفة الواقع . ولكن ما أصعب إدراك هذه المعرفة ، وهذه الحقيقة ! وما أقوى الخطأ ، وما أشد جذوره تمكنا فى الأرض ، حتى ليجد دائماً فرصة ليتولد من جديد ! « ليس هناك كذب ، مهما سخف وأسف ، لم ينتقل من كتاب إلى كتاب ومن عصر إلى عصر . دع أحقر مهرج فى أوربا يجترئ فى كذبه ، وينشر كل أنواع هذيانه ، فسيجد عدداً وفيراً من الناس ينقل رواياته ، وإذا مجوه يوما أو استنكفوه ، فستأتى ظروف يجدون فيها مصلحة فى ابتعاثه من جديد (٢) . »

لن تستطيع أن تقنع إلا المقتنعين ، فشأن العقل عصيان اليقين ، مهما أوتى من بداهة ووضوح .

هل الوقائع فى الحقيقة كما نتلقاها ؟ ألا ترمى المدرسة الحديثة للفلسفة إلى بث الاعتقاد بأن الوقائع إن هى إلا تحورات فى الروح (٣)؟ لقد أغدقت على الارتيابيين فوائد لا يعييك إدراكها (٤):

« إنهم لا يكادون يعرفون فى مدارسنا اسم سكتوس امبريكوس Sextus Empiricus ، إن وسائل تحديد الزمن التى اقترحها فى لباقة لم تكن مجهولة لدينا أقل مما نجهل أرض أستراليا ، حتى جاء غاسندى وأوجزها لنا إيجازاً فتح أعيننا . ثم أكملت مدرسة ديكارت ذلك العمل . لم يعد بين كبار الفلاسفة من يساوره الشك فى أن الارتيابيين Sceptiques (٥) على حق ، فى اعتقادهم

---

(١) « القاموس » باب كاليوس ، تعليق د ، *Dictionnaire*, art. Calius .

(٢) « القاموس » باب كابت ، حرف ى .

(٣) لعله يقصد مالبرانش على الخصوص وهو من أكبر الفلاسفة الفرنسيين اشتهر بنظرية vision en dieu : من المحال أن يكون للمادة وجود . فالوجود للعقل والروح ، إنما الله يوحى إلينا برؤية المادة . وتفصيل نظريته فى كتابه المشهور « البحث عن الحقيقة » . [المترجمان]

(٤) القاموس . . . باب بيرون ، Pyrrhon

(٥) الارتيابيون Sceptiques : أو الشكاك ، أشياع مذهب بيرون ، وهو فيلسوف =

أن صفات الأجسام التى تؤثر فى حواسنا ليست إلا مظاهر . كل منا يستطيع أن يقول « أشعر بحرارة فى وجود النار » ، لا أن يقول « أعرف أن النار فى جوهرها كما تظهر لى » . ذلك أسلوب الارتيابيين القدماء . أما اليوم فتتخذ الفلسفة الحديثة لساناً أكثر إيجابية : فالحرارة والرائحة والألوان وغير ذلك لا تقع فى دائرة الحواس ، بل هى تحورات فى الروح . أعرف أن الأجسام ليست كما تظهر لى . ولقد كان المحدثون يتوقون إلى استثناء الحيز والحركة ولكنهم عجزوا ، لأنه إذا كانت الأشياء تظهر لنا فى لون أو حرارة أو برودة أو رائحة ما ، بينما لا توجد فيها صفة من تلك الصفات ، فلم إذن لا تظهر لنا ذات حيز وشكل ، ساكنة أو متحركة ، بينما ليس لها صفة من تلك الصفات ؟ تلك هى الفوائد التى أعطاها الفلاسفة المحدثون للارتيابيين ، والتى أريد أن أرفضها . . . »

بيد أن بيير بايل لا يستطيع أن يرفضها إلى الأبد ، فقد حوصر ذهنه ، وهذا ظاهر للعيان . فهو ينزلق نحو الارتياب ، لكثرة مواجهته لليقين وللضلال ، وقد يكون ذلك على الرغم منه أو لاستعداد فى طبيعته . وهل نعرف أبدا إلى أين يؤدى بنا مبدأ من المبادئ ؟ « إن نفس المبدأ الذى يفلح أحياناً ضد الضلال يضر أحياناً أخرى باليقين . . .(١) » . إن ما نصل إليه دائماً آخر الأمر ، وبعد البحث ، هو تناقض المبادئ(٢) : « وجماع القول فى ذلك أن نصيب الانسان قد ساء إلى حد أن النور الذى يخلصه من شر يوقعه فى شر آخر . طاردوا الجهل والبربرية توقعوا بالخرافة ، وبحماقة تصديق الناس التى يستغلها القادة ، ويسيئون بعد ذلك استعمال مغانمهم منها ، ليغرقوا فى البطالة والفجور . بيد أننا بتبصير الناس بهذا الفساد ، سنوحى إليهم بروح البحث فى كل شئ ، فيفحصون ، ويتعمقون فى التفكير ، إلى ألا يجدوا شيئاً يرضى عقلهم التعس . . . »

= يونانى فى القرن الرابع ق. م. ينكر استطاعة الانسان الوصول إلى الحقيقة . يرى أن كل الكائنات تخضع لتجدد مستمر ، ولذا فنحن لا نستطيع أن نعرف إلا المظاهر . كل خطوة نخطوها بين الناس لا نرى فيها إلا أخطاء ومتناقضات وأوهاماً فى الحواس ، إذن فالبحث عن الحقيقة لا يستند إلى شئ متين . وهنا منشأ خطورة ذلك المذهب لأنه يؤدى إلى الجمود المطلق . وكان ديكارت يرى قبول هذا المذهب كشك مؤقت ، فهو محك معارفنا ومشاعرنا . وأشهر الشكاك المحدثين مونتانى وبايل وهيوم وكنت . [المترجمان]

(١) القاموس ، باب تقى الدين ، Takiddin .

(٢) القاموس ، باب تقى الدين ، Takiddin .

هناك طريقة ، يمكن للمرء بشيء من الجهد أن يكشفها ، بل أن يحصرها فى صيغة . «ما من نظرية لا تحتاج إلى الأمرين التاليين لتكون صالحة : أولها أن تكون الأفكار واضحة ، وثانيهما أن يؤيدها الواقع (١) » . فاذا نحن طبقنا هذه الطريقة ، وصلنا فى آن واحد إلى الحقيقة المجردة ، وإلى الحقيقة الواقعة التى تؤيدها . ولكن كيف التطبيق ؟ ففيما يتعلق بالحقيقة الواقعة ، نرى الناس يخلطون ويفسدون الوقائع ؛ ألا ترى فى « القاموس التاريخى النقدى » كيف يهدم النقد التاريخ ؟ وفيما يتعلق بالحقيقة المجردة فان الناس لا يتبينون الأفكار بوضوح ، ولو أنهم تبينوها لظهرت لهم كما هى : متعادلة القوة ، متعادلة الاحتمال ، تقتتل فتقتل كل منها الأخرى .

***

ولكن بايل لا يقف عند هذا الحد . وإذا أردنا أن ندرك تفكيره بجملته ، وأن نرى كيف يعاوده فى إلحاح ، فى كل مسألة يرى أنه لم يوفها حقها من التوضيح ، فينبغى أن نصل إلى كتابه « جواب على أسئلة قروى » Réponse aux questions d'un Provincial الذى شرع فى نشره عام ١٧٠٤ ، ولكن الموت لم يمهله ليكمله . إنه لم يتخل عن طريقته فى الاندفاع ، ولا عن عادته فى البدء برسالة مطبوعة ، أو قصة تاريخية ، أو بحث أو نبذه ، لكى يهاجم ويعارض . ولم يطرح سخريته القاسية . ولكن ازدادت مباغتاته واندفاعاته شدة ، وازدادت ردوده حدة ، وأصبح تحليله أكثر دقة . والمفروض أن القروى يسأله عن فحوى كتاب ، أو تحديد تاريخ ، أو واقعة تاريخية ، أو نقطة فضول هينة . وإذا به يكشف فى بضع جمل ، وبوضوح يستحق الاعجاب دائماً ، عن النقط الرئيسية فى المسألة : لا ظلال ولا ظلام ، ولا محل لتلك الهوامش الغامضة حيث تستطيع أن تلتجئ بقية من خطأ ؛ لا تعلل ولا تسامح ، ولا مغفرة . وتحوطه نفس المسائل ولا تكف عن مواجهته : أيسمح الله بأن يترك إثبات وجوده للارتضاء العام (١) ؟ هل منح الله الحرية للبشر ، أم يقودهم القدر ؟ إذا كان هناك إله فلم خلق الظلم ومختلف أنواع الشر ؟ إن بايل لا يساوره الضجر ، بل يتقدم بحل : حل يرمى إلى القول بأنه من المحال أن نؤكد شيئاً ، أو أن نعرف شيئاً !

---

(١) القاموس ، باب Manichéens ، بيان D .

ويعود ذلك البحاثة الكبير إلى عمله مستزيداً من جسارته ، وأكثر شعوراً بمسئوليته . يريد أن يثبت بالدليل القاطع أن ليس بين الدين والفلسفة قياس مشترك : فطالما يخلط الناس بينهما فستذهب جهودهم أدراج الرياح . وهو يزعم أنه لا يهاجم العقيدة بوصفها عقيدة ، بل يظهر بمظهر يدل على احترامه لها ، قائلا إنه لا يفعل شيئاً غير اتباع وترديد ما يدلى به المدافعون عنها من حجج و براهين : أفلا يعترفون بأن كل دين يقوم على سر أولى ؟ تلك حقيقة الأمر ، سر يجافى المنطق ، ووضع يتنافى مع مجريات الحال ولا يتفق مع وجود عقل مفكر — بل إنه يقتحم القلعة لكى يزلزلها ، وينشر بين حماتها الاضطراب والذعر . فتراه يقول لهم ، إننا إذا قبلنا الوحى يظهر الدين حقيقيا ، وتتابع مبادئه متفقة مع المنطق . غير أنه يضيف أن الوحى لا يمكن إثباته . فتصديقك شئ ، واستعمالك العقل شئ آخر .

لا توسط ولا تجزئة ، إن رفضك هذا المعتقد أو ذاك لتقبل هذا المعتقد أو ذاك ، لهو التعارض البين ، إنه السخف بعينه « خيل إلى من مطالعة بعض رسائلك أنك تدعى أنه فيما يتعلق بالتثليث وببعض مواد المسيحية الأخرى، يجب على العقل أن يسجد أمام سلطان الله ، أما فيما يتعلق بخطيئة آدم وبما ترتب عليها ، فيجب أن يخضع الكتاب المقدس لمحاكمة الفلاسفة . فاذا كانت لديك تلك الفكرة حقا ، وإذا كان قد وصل بك التباين إلى هذا الحد ، فانك لتستدر رثائى . . . (١) » . هل أنت من أشياع الأسرار؟ إذن فاعتقد بها ، سواء اتفقت مع الفلسفة أو لم تتفق ، أو كانت تنقضها الفلسفة ببراهين لاترد . ولكن عندئذ لا تدعى أنك تستعمل عقلك . وأولئك الذين يريد بايل أن يقنعهم بحماقتهم أو بغفلتهم ، ليسوا الكاثوليك وأتباع كالفين فحسب بل كل أصحاب النحل الأخرى ممن يدعون إثبات وجود الله بالنور الطبيعى ، وكل أولئك يسميهم جماعة « الدينين » Religionnaires (٢) ، ويقابلهم « العقليون » Rationaux .

---

(١) « جواب على أسئلة قروى » ، الجزء الثالث الفصل ١٢٨ ، ١٧٠٦ ، *Réponse aux questions d'un provincial*, t. III. chap. CXXVIII, 1706

(٢) جواب على أسئلة قروى، الفصل ١٣٤ ... « الدينيون (اسمح لى أن أستعمل هذه الكلمة للدلالة على اليهود ، والوثنيين والمسيحيين والمسلمين ..) » *Ibid.* chap. CXXXIV... « Les Religionnaires (permettez-moi de me servir de ce mot pour désigner en commun les Juifs, les Pavens, les Chrétiens, les Mahométans, etc) ».

ولكن حينما تفترق القوتان بعضهما عن بعض على هذا الغرار ، يجد العقليون لزاما عليهم ، لكى يظلوا منطقيين مع أنفسهم ، أن يمحصوا مبدأهم الخاص ، وهنا يبدأ الاضطراب . وا أسفاه ! فان الفلسفة لا ترتق الخروق التى تثقبها بالرغم من كل ما تتخذه من تدابير . فهى إذا كانت قادرة على تقويض التوكيدات الموروثة ، فانها عاجزة عن إبدالها بشئ سوى الاستفهام . هل الانسان حر ؟ أم يخضع للقدر؟ « لن ننتهى إذا طرقنا مسائل الحرية ، فلكل فئة موارد لا تفنى . . . . » إن الاختيار Le libre arbitre لمسألة معقدة حافلة باللبس ، حتى إننا لو تعمقنا فيها لناقضنا أنفسنا ألف مرة ، ولاستغرقنا نصف المدة فى استعمال نفس كلام مخالفينا ، ولهيأنا بأنفسنا أسلحة ضد قضيتنا ...(١)»

هل الروح أبدية ؟ إنها لكذلك ولو لم تكن لكانت مادية . — هل هناك إله سامى الحكمة واسع الرحمة ؟ ربما ، ولكن كيف نعلل بأى دليل ، رضا هذا الاله الحكيم الرحيم بأن يعذب مخلوقاته فى أجسامهم وفى أرواحهم ؟ رضاه بأن يحملهم المسئولية ؟ إن هذه النظرة التى تحضره لأول وهلة ، وهذ الواقع الذى يقرره ، والذى يصدم عقله فيثير شعوره ، يهولانه و يروعانه . وتنتابه قشعريرة : « أولئك الذين يسمحون بحدوث شر فى مقدورهم أن يمنعوه فى يسر ، يستحقون اللوم ؛ أولئك الذين يدعون شخصاً يهلك وفى وسعهم إنقاذه مسئولون ولا شك عن موته . سلوا فلاحة ساذجة : الأمهات اللواتى لديهن فيض من اللبن ، ويؤثرن أن يتركن أولادهن يموتون جوعاً بدلا من إرضاعهم، ألسن مجرمات كاللواتى يرمين أولادهن فى الماء سواء بسواء ؟ الوالد الذى يرى أحد أبنائه يوشك أن يضع السم فى فمه ويدعه يفعل ، على الرغم من علمه بأن نصيحة يسيرة منه أو إشارة بعينه تمنعه من تجرع السم ، ألا يكون مخالفا لآدميته ، كما لو كان جرعه السم بيده؟(٢) » .

كيف يتبادر إلى الذهن تشبيه الله بهذه الأم القاسية أو ذلك الوالد المجرم؟ جهدت النفوس الصالحة وسعت ؛ وخيل إلى لاهوتى أنجليكى ، وهو وليم كنج الطيب القلب ، أنه قد برّر وجود الشر ، إذ نشر بحثاً ضخماً باللاتينية متوهماً

---

(١) جواب على أسئلة قروى ، الجزء الثالث الفصل ١٤٢ ، ١٧٠٦ .

(٢) جواب على أسئلة قروى الفصل ٧٤ وما بعده ، نقض كتاب وليم كنج W. King عن أصل الشر Origine mali لندن ١٧٠٢ .

أنه حل المسألة التى لا تحل . بيد أنه لم يحل شيئاً ، فهى مشكلة أعقد من ذنب الضب .

يا للانسان من نسيج من المتناقضات ! « الانسان هو العقبة الكؤود أمام النظريات . إنه الصخرة التى تعترض الحق وتعترض الباطل . إنه يربك الطبيعيين و يربك الأورثوذكس . . . إننا هنا أمام عمه أصعب فى تبديده من عمه الشعراء » . نحن نشن الحرب على الضلال ولكنا نخشى أن نجد فى نهاية الكفاح ، أن أرواحنا أكثر انسجاماً مع الكذب منها مع الحق (١). ونضع كل ثقتنا فى قوة العقل السديد ثم نكتشف أنه لا حول له ولا قوة . « لا حيلة للعقل أمام الطبع ، فهو يدعه ينتقل من نصر إلى نصر وينقاد له إما كأسير و إما كداهن . وهو يغالب الشهوات ردحا من الزمن ، ثم يلوذ بالصمت ويسكن ويكتم الحزن ، ثم يذعن (٢)» نحن نحس أنه لا يستوثق أبداً من توكيداته ، وأن أوضح الأفكار فى الظاهر ، ليست إلا مسائل عويصة فى الواقع . إن الارتياب يعود فيهدد ، بينما الفكر يذوى و يهن .

***

لكن هل يسير بايل حتى الشك المطلق ؟ — لقد كان يصل إليه لو أنه انقاد لطبيعة ذهنه ، إلا أن الرهان الفلسفى le jeu du pour et du contre كان لذته الكبرى . ولو أنه كان منطقياً صرفاً ، ولو لم يحسب حساباً إلا لما وصل إليه من تجاربه الانسانية ، وللاستنباطات التى كانت تفرض نفسها على عقله كل يوم أكثر من سابقه ، لوصل إلى تلك المناطق الفسيحة من الغموض حيث لا يجد المرء حافزاً للعمل أو باعثاً على الوجود ، ولاستطاع بل لتحتم عليه أن يصل إلى مايسميه لى كلير الارتياب الميتافيزيقى والتاريخى ، أى الشك المطلق .

ولكنه صمد وقاوم . فان شجاعته واعتقاده بأن عليه رسالة لا بد من تحقيقها ، وكراهيته للضلال التى كانت أقوى من كل شك يساوره حيال اليقين ، وعقله الذى أبى الاذعان التام لما لقيه من انهزام ، وفوق كل ذلك مجهود واع

---

(١) جواب على أسئلة قروى الجزء الثالث ، الفصل ١٠٣ ، ١٧٠٦

(٢) جواب على أسئلة قروى الجزء الأول ، الفصل ١٣ ، ١٧٠٤ .

بصير بارادته ، كل هذا أتاح له أن يحجم عن الخطوة الأخيرة . لم يقبل أبداً أن يتخلى عن اعتقاده فى أن آمامه خير أخلاقى ليحققه ، وتقدم ليؤازره . وفى هذا المعنى يقدم لنا « القاموس » فقرة مؤثرة ، وهى فى باب ما كون Mâcon تعليق D « لماذا المس هذه المفاسد المروعه ؟ » Pourquoi je touche ces effroyables désordres . هذه المفاسد المروعة ، وتلك الحروب الدينية التى اتخذت ذريعة لاحط انواع البربرية ، هذا الخروج عن الادمية ، اليس الافضل ان نمحو ذكرها وأن نزيل تذكارها ؟ ألا يعنى تكرارها أننا نغذى فى العقول حقدا أكولا لا يخمد ؟ » « الا يستطيع الناس ان ينعوا على انى كأنما اقصد إيقاظ الاهواء ، وإشعال نار الاحقاد ، بنشرى هنا وهناك فى كتابى افظع ما عرفه القرن الماضى من وقائع واحداث ؟ بلى ، « فبما ان لكل شئ وجهين ، فهناك اسباب قوية تدفعنا إلى ان نتمنى ان تبقى ذكرى تلك المفاسد المروعة ماثلة محفوظة بعناية » . ينبغى أن يكون الحكام ورجال الكنيسة واللاهوت على علم بالشرور الماضية ليجتنبوها فى المستقبل . هكذا يفاضل بايل بين وجهى الاشياء ، ويختار الوجه الذى يستشف فيه بعض الأمل . ومع أن الشك قد خامره فى إمكان وصوله يوماً إلى اليقين المطلق ، فقد كان يعتقد أن الباطل مرض معد ، وأن رسالته ان يضع حداً لما يسببه من أضرار . إنه طبيب للعميان ، أقل ما يجب عليه أن يزيل الغشاوة عن بعض الأبصار .

ولم يقلد بايل أصحاب العقول السقيمة الذين حمل عليهم ساخراً « إنهم يفتعلون العظمة والشجاعة أمام الله طالما كانوا فى عنفوان الصحة وأوج الحظ والسعادة ، فاذا ظنوا أنه قد حاق بهم مرض أو مصيبة ، أو أدركتهم الشيخوخة ، انحدروا كالعادة حتى إلى الخرافات ؛ وإذا أحسوا أنهم على شفا الموت ، كانوا أكثر من الآخرين توفراً على تجهيز كل معدات الرحلة إلى العالم الآخر

ولقد بقى بايل حتى اخريات ايامه مهاجما متعديا . ضد من لم يشهر السلاح ؟ شيرلوك Sherlock ، تيلوتسون Tillotson ، كادورث Cudworth ، وليم كنج W. King ، جان لى كلير Le clerc ، جوريو Jurieu ، ارنو Arnauld ، نيكول Nicole ، برنار Bernard ، واخيرا جاكلو Jaquelot الذى هاجم « القاموس » ، والذى كان أكثر من خصم عادى لادعائه بانه اثبت اتفاق العقل مع الايمان . ولقد كان جاكلو رمزا للأفكار التى تابى الاجتلاء ، رمزا للمشاكل التى

تستعصى على العقل ، ومثالا للضعف البشرى . ولما ضعف بايل أخيراً ووقع فريسة للسعال والنزلة الصدرية ، ونهكته الحمى ، لم يكف عن استغلال فترة الموت فى الردود والجدال . وإذا كان قد خالجه الأسف على شئ ، فهو اضطراره إلى الارتحال قبل تفنيد أخطاء جاكلو(١) .

إن تفكيره النقدى كعطر مركز أقوى من أن يستعمل فى حالته الخالصة ، بل مقصود فى صنعه أن يخفف : وهذا عين ما حدث . أصبح تفكيره — عن طريق «القاموس» ، وبخروجه من نطاق المنازعات بين رجال اللاهوت ودخوله فى متناول الجميع « حتى شاهد الناس الاعتراضات فى كل ضيائها » ، وبايحائه بالأثوردكسية فى كل البلاد — داعياً إلى صعوبة التصديق والاعتقاد . « لقد أصبح معلوماً أن مؤلفات مسيو بايل قد ملأت بالشك عدداً وفيراً من القراء ، وغلفت بالريب مبادئ الدين والأخلاق العالية المكتسبة (٢) » .

***

عقب معارك الأفكار فى القرن السادس عشر ، ظهر اقتراح بالسلام . إنه عرض بالتهادن : سيقدر الناس أن المسائل التى طالما أضنتهم قد حلت ، ظانين أنهم يهيئون بذلك للبشر أن يعيشوا دون عذاب الهموم المقيمة . وتراهم ينشطون ، ويوجهون اهتمامهم نحو مبتدعات الفكر الخالصة ، ويتذوقون متعة المجتمع ، ويتعلمون حسن المعاشرة ، فيصبحون على الأقل راضين مسرورين إن لم يكونوا فى غاية السعادة . وتجدهم يضفون على ارتضائهم هذا نوعاً من الشجاعة ومن العظمة ، ويلقون فى أمانهم الاختيارى نوعاً من الجلال ، مثلما

(١) اسحق جاكلو Jaquelot : «توافق العقل والايمان ، أو دفاع الدين ضد الصعوبات الأساسية المنتشرة فى القاموس الفلسفى الانتقادى لمسيو بايل » ، أمستردام ١٧٠٥ . لقد كانت هذه الأزمان أزمان بطولة ، حيث لم يوجد من يرضى بأن يترك لخصمه الكلمة الفاصلة الأخيرة ، وحيث كان يتعقب المبارزون العنيدون خصومهم حتى بعد الممات . ارجع إلى لى كلير « المكتبة المنتخبة » جزء ١٢ ، ١٧٠٧ ؛ ملاحظات عن محاذثات مسيو بايل نشرت بعد وفاته « كنت أعرف كل ما يستطيع مسيو بايل أن يقوله ضدى ، وكنت مستعداً لأن أتحمل كل حدته وكل شتائمه ، بدلا من أن أيسر له السعادة فى أن يكون اخر من يتكلم ، السعادة التى كان ينتظرها بفارغ صبر » .

(٢) المكتبة الألمانية ، الجزء ١٨ ، ١٧٢٩ ، *Bibliothèque germanique*, t. XVIII, année 1729.

تجد فى تنظيم خلية ، وما فيها من تدرج طبقات ، وقوانين ، وفى إنتاجها وتكاثرها، نظاماً يفترض آلافاً من التضحيات .

ولكن كيف السبيل إلى استتباب ذلك السلام ، إذا كانت المبادئ السيكولوجية التى يقوم عليها تتغير قبل أن تتوطد ؟ المرتحلون والشاردون والفضوليون والمعذبون وأولئك الذين يكرهون الاستقرار ، والمحدثون الذين لا يرون فى حالة الفكر التاريخية إلا الضعف والرياء ، والقادمون الجدد الذين لا يدركون حتى أصول التفكير لدى الشعوب اللاتينية ، وكل من يحتج ، وكل من يشك ولا يرى المسألة السياسية قد لقيت حلا ، ودونها فى ذلك أيضاً المسألة الدينية : كيف تملك نفسها وتربط جأشها هذه الكتلة المتراصة القوية ؟ إنها تشن الحرب على المعتقدات التقليدية ، كبداية .